بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (2)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [سورة يونس(7-8)].

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة، ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا، واطمأنت إليها نفوسهم، قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا} من المعاني التي يأتي لها الرجاء الخوف، فحمل على ذلك بعض الآيات كقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا} فقال به طائفة من السلف فمن بعدهم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- {لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا} أي: لا يخافون، وفسره بعضهم فقال: {لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا}: أي لا يطمعون، أو لا يتوقعون لقاء الله -عز وجل- الذي يجازيهم فيه على كفرهم ومحادّتهم لرسله -عليهم الصلاة والسلام-، ويمكن أن يكون بعض هذه المعاني متضمناً للخوف، فيقال: لا يتوقعون لقاء الله -عز وجل- فهم لا يخافونه ولا يطمعون فيه، وقوله: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} حمله ابن كثير على الآيات بنوعيها، الآيات الكونية والآيات الشرعية، أو الآيات المتلوة، فكل ذلك لا يتأملونه ولا يتفكرون فيه فهم غافلون عنه.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ* دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة يونس(9-10)].

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم، يحتمل أن تكون الباء هاهنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم، حتى يَجُوزوه ويخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله: {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} قال: يكون لهم نوراً يمشون به، وقوله: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: هذا حال أهل الجنة، وهذه الآية فيها شبه من قوله: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} [سورة الأحزاب(44)] الآية، وقوله: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا

تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا}[سورة الواقعة(25-26)]، وقوله: {سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَبٍّ رَّحِيمٍ} [سورة يـــس(58)].

وقوله: {وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ} [سورة الرعد(23)] الآية.

وقوله: {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}[سورة الكهف(1)]، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} [سورة الأنعام(1)] إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة، وفي الحياة الدنيا وفي الآخرة، وفي جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث: ((إن أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَّفَس))[1] وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم، فتكرر وتعاد وتزداد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

قوله: {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} ذكر المعنيين بسبب إيمانهم، وهذا يحتمله ظاهر اللفظ وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، كما أن المعنى الثاني {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} بحيث يكون ذلك نوراً لهم بقدر هذا الإيمان، وهذا أيضاً تحتمله الآية، ومن هذه الهدايات التي تحصل لأهل الإيمان هو ما يحصل لهم من الهداية إلى الصراط، وقبله يحصل لهم هداية عند سؤال الملكين، ويحصل لهم هداية عند الحساب، ويحصل لهم هداية على الصراط، ومن الهدايات التي تحصل لهم على الصراط أن الله يجعل لهم نوراً يمشون به، ومنها أن الله يهديهم إلى الجنة، ويهديهم إلى منازلهم في الجنة، كما قال الله -عز وجل-: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ} [سورة محمد(4)]، فهذه من الهدايات التي تكون في الآخرة، فيهديهم ربهم بإيمانهم، أي بسبب إيمانهم، وتفسير من فسره بأن الله يجعل لهم نوراً على الصراط، يكون مضمناً في هذا المعنى، قوله -تبارك وتعالى-: {تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ} أي: بين أيديهم، وليس المعنى أنها تجري من تحت أرجلهم وهم فوقها، كما قال الله -عز وجل- لمريم {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا} [سورة مريم(24)]، والسَرِيّ هو الجدول الصغير من الماء على أحد المعاني المشهورة التي فسر بها، كما قال الله -عز وجل- عن فرعون: {وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي} [سورة الزخرف(51)] يعني: من تحت قصوره وهذا هو المراد -والله أعلم-، فعلى كل حال {تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ} قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {دَعْوَاهُمْ} "أي: هذا حال أهل الجنة"، فالدعوى: من أهل العلم من فسرها بالدعاء، {دَعْوَاهُمْ} أي: دعاؤهم فيها {سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ}، وبهذا فسره ابن جرير -رحمه الله-، ومن أهل العلم من فسر الدعاء هنا بالعبادة {دَعْوَاهُمْ} أي: عبادتهم {فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ}، لا يكلفون بصلاة ولا بصيام ولا بجهاد ولا غير ذلك، وإنما يلهمون التسبيح، ومن أهل العلم من فسر الدعوى {دَعْوَاهُمْ} بالتمني، كما قال الله -عز وجل- في الآية الأخرى: {وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ} [سورة يـــس(57)] يعني يطلبون ويتمنون، ولكن هذا التفسير أبعد من غيره في

---

1 - رواه مسلم من حديث جابر -رضي الله عنه- قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون، قالوا فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس))، برقم (2835)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا.

هذه الآية، وبعضهم أيضاً فسر {دَعْوَاهُمْ} أي: سيرتهم ودَيْدَنهم {سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ}، والأقرب في معناها -والله أعلم- أن دعواهم أي دعاؤهم، وقوله: {وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} التحية: مصدر، والمصدر يمكن أن يكون بمعنى الفاعل، ويمكن أن يكون بمعنى المفعول، بمعنى أن التحية يمكن أن يكون ما يصدر منهم من التحية يُحيُّون غيرهم، ويحتمل أن يكون: ما يُحيَّون به، {تَحِيَّتُهُمْ} أي: ما يحييهم به الله، ما تحييهم به الملائكة، أو ما يحيي بعضهم بعضاً به، والآية تحتمل هذه المعاني كلها، وقد دل عليها القرآن كما في الآيات التي ذكرها الحافظ -رحمه الله-، وقال: {سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ} [سورة يـــس(58)] هذا ما يحيون به، {تَحِيَّتُهُمْ} أي: ما يحيون، يحييهم به الله، والملائكة أيضاً {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ} [سورة الرعد(23-24)]، فهذه تحية صادرة من الملائكة، فقوله: {تَحِيَّتُهُمْ} أي: ما يحيي بعضهم بعضاً به.

{وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة يونس(11)].

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد بالشر إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم -والحالة هذه- لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء، ولهذا قال: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} الآية، أو لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم)). رواه أبو داود[2]، وهذا كقوله تعالى: {وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ} [سورة الإسراء(11)] وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ} الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك، كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

قال الحافظ -رحمه الله-: "فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم"، فهذا معنى استعجالهم في الآية: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ} فهم يستعجلون الخير ويستعجلون الشر، ومن استعجالهم الشر {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال(32)]، ويدخل فيه دعاء الإنسان على نفسه، أو على ولده، أو نحو هذه الأمور، فقوله: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ} يعني كما يعجل لهم الخير، وليس استعجالهم بمعنى كما يستعجلون الخير ويطلبون حصوله عن وقت قريب، فهناك فرق بين ما قد يُتوهم من ظاهر الآية وبين

---

2 - هو جزء من حديث طويل عند مسلم برقم (3014)، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، ورواه أبو داود واللفظ له برقم (1532)، كتاب الوتر، باب النهي عن أن يدعو الإنسان على أهله وماله، وصححه ابن حبان في صحيحه (51/13)، برقم (5742)، وقال محققه الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (1371).

المعنى المراد، وإلا فلو كان المقصود استعجالهم أي: كما يستعجلون هم ويطلبون الخير عاجلاً، لكان المعنى غير واضح، فوضْع الاستعجال موضع التعجيل يشعر بسرعة إجابته -سبحانه وتعالى- لما يطلبون، حتى كأن استعجالهم بالخير صار تعجيلاً، والذي عليه عامة أهل اللغة: أن المعنى كتعجيلهم بالخير، {لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} أي: لهلكوا، وقوله: {فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} لا يرجون لقاءنا، يمكن أن يفسر بمعنى الخوف، ويمكن أن يفسر بمعنى التوقع أو الطمع، و{فِي طُغْيَانِهِمْ} أي: في تطاولهم ومحادتهم وعتوهم على الله -تبارك وتعالى-، {يَعْمَهُونَ} أي: يتحيرون في كفرهم وضلالهم وتكبرهم.

{وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة يونس(12)].

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيض} [سورة فصلت(51)] أي: كثير، وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثَرَ الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء، {مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ} ثم ذم تعالى مَن هذه صفتُه وطريقته فقال: {كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}، فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنىً من ذلك، كقوله تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ} [سورة هود(11)]، وكقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عجباً لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وإن إصابته سراء فشكر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن))[3].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: حمل هذه الآية والتي قبلها على المؤمن والكافر، {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ} لعموم الناس، {الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ} فهذا يقع من المؤمنين ويقع من الكافرين في الدعاء على النفس والولد وما أشبه ذلك، وكذلك {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ} هذه طبيعة الإنسان، وهذا يقع من المؤمنين، وذلك لا يختص بالكفار، ومن الآيات ما يكون مختصاً بالكفار، ومنها ما يشمل هؤلاء وهؤلاء، مثل قوله تعالى: {وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} [سورة الإسراء(11)]، شاملة للمسلمين والكفار، وقوله: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى* أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق(6-7)]، هذا يشمل هذا وهذا إلا من رحمه الله ولطف به، ومن الآيات ما يكون مراداً بها الكفار، واللام في قوله: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ} يحتمل أن تكون للتوقيت، -والأقرب والله أعلم- أنها بمعنى (على)، {دَعَانَا لِجَنبِهِ} أي: على جنبه، ويحتمل أن تكون (أو) في قوله: {دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا} بحسب حاله إذا أصابه الضر، وهو قائم أو قاعد دعا بحسب الحال، ويحتمل معنى آخر وهو -الأقرب والله أعلم- أن المراد {دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا} أي: في الأحوال كلها يدعو وهو قائم وقاعد، فلا يفتر لسانه من الدعاء والتضرع إلى الله -عز وجل-

---

3 - رواه الإمام مسلم من حديث صهيب -رضي الله عنه- بلفظ: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له))، برقم (2999)، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

أن يكشف ما به من ضر، وهذا هو الموافق لحال الإنسان كما لا يخفى، {دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا} ولم يذكر أحوالاً أخرى كالسجود والركوع، باعتبار أن هذا هو الغالب، فالإنسان يكون إما قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً، وقال: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ} مر: يحتمل أن يكون بمعنى مضى، كأن لم يدع كقوله: {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ} [سورة الزمر(8)]، يغفل بل لربما لو ذُكّر بالعلة والمرض الذي أقلقه وأزعجه لربما نسيه، ولم يتذكر، فالإنسان تمر عليه أحوال من الضر والبأس، ويحصل له من الانزعاج والقلق والاضطراب الشيء الكثير، ولربما يُذَّكر به بعد سنوات ولا يذكره، ويحتمل أن يكون {مَرَّ} بمعنى استمر على كفره، أو إعراضه أو ضلاله أو معصيته، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، {كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} يحتمل أن يكون الشيطان هو المزين، فالشيطان يزين لهم أعمالهم كما أخبر الله -عز وجل- في مواضع متعددة في القرآن، ويحتمل أن يكون المزين النفس الأمارة بالسوء، فهي تزين لصاحبها المنكر {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [سورة يوسف(53)]، ويحتمل أن يكون الذي زين لهم هو الله -عز وجل- {زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ} [سورة النمل(4)] أي: أبهمه.

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ* ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [سورة يونس(13-14)].

أخبر تعالى عما أحلّ بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل، فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))[4].

وروى ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عوف بن مالك قال لأبي بكر -رضي الله تعالى عنهما-: رأيت فيما يرى النائم كأن سبباً دُلِّي من السماء، فانتشط رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم أعيد فانتشط أبو بكر، ثم ذرع الناس حول المنبر، ففضل عمر بثلاثة أذرع حول المنبر، فقال عمر: دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها، فلما استخلف عمر قال: يا عوف رؤياك، قال: وهل لك في رؤياي من حاجة؟ أولم تنتهرني؟ قال: ويحك، إني كرهت أن تنعي لخليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نفسه، فقص عليه الرؤيا حتى إذا بلغ "ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع" قال: أما إحداهن فإنه كائن خليفة، وأما الثانية: فإنه لا يخاف في الله لومة لائم، وأما الثالثة فإنه شهيد، قال: فقال: يقول الله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}، فقد استخلفت يا ابن أم عمر فانظر كيف تعمل، وأما قوله: فإني لا أخاف في الله لومة لائم، فما شاء الله، وأما قوله شهيد: فأنَّى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به.

قوله: أما إحداهن فإنه كائن خليفة، هذا الإيضاح والبيان، جاء في نفس الرؤيا.

---

4 - رواه مسلم برقم (2742)، كتاب الرقائق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء.

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة يونس(15-16)].

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه أنهم إذا قرأ عليهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له: {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا} أي: رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، {أَوْ بَدِّلْهُ} إلى وضع آخر، قال الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي} أي: ليس هذا إليّ، إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: {قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ}.

يقول الحافظ -رحمه الله-: {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا} أي: رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، {أَوْ بَدِّلْهُ} أي: إلى وضع آخر، {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا} بمعنى بقرآن بديل، يعني يبدل بالكلية، لا نريد هذا القرآن الذي بزعمهم يذم آلهتهم ويعيب دينهم ويذْكر الآخرة، {أَوْ بَدِّلْهُ} بمعنى غيّر فيه الأشياء التي لا تروق لهم، هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير، ويحتمل معنى آخر {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا} أي: نريد قرآناً آخر غير هذا، هات معه كتاباً آخر مع بقائه، {أَوْ بَدِّلْهُ} مع ذهاب هذا، يعني يذهب هذا ويأتي آخر بدلاً منه، وهذا تحتمله الآية، والمعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- أقرب في الاحتمال، وقوله: {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي} ذكر أحد القسمين ولم يقل: قل ما يكون لي أن آتي بقرآن غير هذا أو أن أبدله من تلقاء نفسي، وهذا باعتبار أن المجيء بقرآن آخر ليس داخلاً تحت قدرته وتصرفه، وإنما يأتي به الله، والتبديل، بمعنى التغيير، وعلى أحد الاحتمالين، تبديل بعض الأشياء فيه هذا يمكن للإنسان أن يفعله، لو كان ذلك جائزاً، فنَفَى الأمر الذي يدخل تحت طوق البشر {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ}، لأن هذا لا يحل لي ولا يجوز، بل إنما يكون ذلك مختصاً بالله -عز وجل- {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ} [سورة النحل(101)]، {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [سورة البقرة(106)]، {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي}، ويحتمل أن يكون ذكر أحد الأمرين باعتبار أنه الأسهل، فيقول: ما يكون لي هذا، فإذا كان ذلك ما يكون له فالأصعب من باب أولى، ذكر أحد القسمين؛ ليدل على نفي الآخر من باب أولى، وكلمة (ما يكون) تأتي أحياناً للامتناع الشرعي، وأحياناً للامتناع العادي، أي: في مجاري العادات، وأحياناً للامتناع العقلي.

ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به {قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ} أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله -عز وجل-، لا تنتقدون عليّ شيئاً تغمصوني به ولهذا قال: {فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [سورة يونس(16)] أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؟، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه

بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق، والفضل ما شهدت به الأعداء، فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليَدَعَ الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

وقال جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه -عليه السلام- بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة.

قوله: **{قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ}** في قراءة ابن كثير **{وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ}** بمعنى ما يكون هذا القرآن موحى به إليّ وإنما يُعلمكم الله -عز وجل- به مباشرة، **{قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ}** يصلكم بغير طريقي.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} [سورة يونس(١٧)].

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ممن افترى على الله كذباً وتقوّل على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء؟، فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد -صلى الله عليه وسلم- وبين مسيلمة الكذاب، لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حِندس الظلماء.

فمِن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد -صلى الله عليه وسلم- وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ}** أي: لا أحد أظلم، والاستفهام إذا كان مضمناً معنى النفي فإنه يدل على أنه قد بلغ في الظلم غايته، لا أحد أظلم، كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}** [سورة البقرة(١١٤)]، يعني: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، وقوله: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا}** [سورة السجدة(٢٢)] وغير ذلك، فيمكن الجمع بين هذه الآيات **{وَمَنْ أَظْلَمُ}** بأن أفعل التفضيل تمنع الزيادة ولا تمنع التساوي، فيمكن أن يشترك هؤلاء المذكورون بكونهم قد بلغوا أعلى درجات الظلم، فهي لا تمنع التساوي، كقولك: أشجع الناس زيد، وفي مناسبة أخرى يمكن أن تقول: أشجع الناس عمرو وهكذا، ولا منافاة بين قولك الأول وقولك الثاني باعتبار أن هؤلاء قد بلغوا، لكن لا يزيد أحدهم على الآخر في هذه الصفة، ويمكن الجمع أيضاً بين الآيات بأن يقال: إن هذا يختص في كل مقام بالصفة المذكورة، ففي المفترين لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، وفي المانعين لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وفي المعرضين، لا أحد أظلم ممن ذُكر بآيات ربه ثم أعرض عنها وهكذا، وقوله: **{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا}** الافتراء: هو الاختلاق والكذب، ووجه مجيء لفظة الكذب بعد الافتراء في قوله -عز وجل-: **{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا}** يمكن أن يكون ذلك للتأكيد كما يقال: الصراط المستقيم، ومعلوم بأن الصراط أصلاً لا يطلق إلا على الطريق المستقيم، فأتى بلفظ المستقيم بعده من باب أنها صفة كاشفة وليست صفة مقيِّدة بخلاف ما إذا قلت: الطريق، فالطريق قد يكون مستقيماً وقد لا يكون مستقيماً، فإذا قلت: الطريق المستقيم، فهذه الصفة أفادت قيداً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في هذا الموصوف، فالشاهد أن قوله: {افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} يمكن أن يجاب عنه بمثل هذا الجواب، وهذا لا إشكال فيه، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب، ويمكن أن يقال: إن الافتراء قد يكون من جهة نسبة الشيء إلى غير من صدر عنه ، فمثلاً تنسب إلى هذا جرم هذا، أما {افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} فهذا مختلق من أصله، هكذا يذكر بعض أهل العلم في الجواب عن مثل هذا، وهو لا يحتاج إلى الجواب -والله أعلم-، فقوله: {افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} من باب تحقيق هذا الأمر وتقرير هذا الوصف وتأكيده، كما يقول الله -عز وجل-: {وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ} [سورة آل عمران(١١٢)] ولا يمكن يقتل الأنبياء بحق، ولكن هذا من باب التسجيل عليهم هذا الأمر وبيان شناعة جرمهم، وكقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} [سورة المؤمنون(١١٧)]، فلا يمكن لأحد أن يفهم بمفهوم المخالفة بأن يقول: إن الذي يدعو مع الله إلهاً آخر له به برهان فإنه لا يلحقه حرج.

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة انجفل الناس، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب.

عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فهو ما رأى معجزة، وإنما بمجرد ما رآه عرف أن وجهه ليس بوجه كذاب، كذلك حينما سمع كلامه يأمرهم بإطعام الطعام وصلة الأرحام ... إلى آخره، فبهذه الدلائل النبوية عَرف نبوته -صلى الله عليه وسلم-، وآمن به أقوام بناء على هذه الدلائل، وهذا الذي جاء في الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح تسميته بآيات الأنبياء، يقال له: آيات الأنبياء، ومن الآيات ما هو معجز مثل انشقاق القمر، ونبع الماء بين أصابعه -عليه الصلاة والسلام-، وما شابه ذلك، ومنها ما ليس بعجز، وكل ذلك داخل في آيات الأنبياء، وقد يسميه بعض المتقدمين بدلائل النبوة، ثم ما كان خارقاً للعادات فيما يقع للأنبياء في عرف المتأخرين يقال له المعجزات، وما يقع لأتباعهم يقال له: كرامات الأولياء، وكل ذلك عائد إلى آيات الأنبياء، وقال هود -عليه الصلاة والسلام- لقومه متحدياً: {إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ} [سورة هود(٥٤-٥٦)] رجل يتحدى أمة، هذا ليس من خوارق العادات، ولا من المعجزات، ولكنه من دلائل النبوة، شدة الوثوق بما عنده من الحق وتيقنه وما أشبه هذا، كل هذه الأمور هي من دلائل النبوة.

فكان أول ما سمعته يقول: ((يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)) [1]**، ولما وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما قال له: من رفع هذه السماء؟ قال: ((الله))، قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: ((الله))، قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: ((الله))، قال: فبالذي رفع السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: ((اللهم نعم))،**

---

١ رواه ابن ماجه برقم (١٣٣٤)، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في قيام الليل، والترمذي بمعناه برقم (١٨٥٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، كتاب الأطعمة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في فضل إطعام الطعام، وأحمد في المسند (٢٠١/٣٩)، برقم (٢٣٧٨٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٨٦٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص"[٢]، فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه -صلوات الله وسلامه عليه-، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه.

وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم -يعني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرءون سورة عظيمة قصيرة، فقال: وما هي؟ فقال: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [سورة العصر(١-٢)] إلى آخر السورة، ففكر مسيلمة ساعة ثم قال: وأنا قد أنزل عليّ مثله، فقال: وما هو؟ فقال: يا وبْر يا وبْر إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حفْرٌ نقْرٌ، كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب. فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه حال محمد -صلى الله عليه وسلم- وصدقه، وحال مسيلمة -لعنه الله- وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهى، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجا؟؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللّهُ} [سورة الأنعام(٩٣)]، وقال في هذه الآية الكريمة: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل وقامت عليه الحجج لا أحد أظلم منه.

{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [سورة يونس(١٨-١٩)].

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: {قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ}، وقال ابن جرير: معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض، ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة؛ ليَهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيّ عن بينة.

قال ابن جرير -رحمه الله- في قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ}: إن معناها أتخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض، كأن هذا من قبيل التفسير باللازم وليس من قبيل التفسير بالمطابق، بما لا يكون: يعني ظاهر الآية، {أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ} يعني بما لا يعلم وجوده ولا وقوعه، هذا المعنى هو التفسير بالمطابق، فابن جرير

---

٢ رواه البخاري برقم (٦٣)، كتاب العلم، باب ما جاء في العلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

-رحمه الله- قال: أتخبرونه بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض، فالذي لا يعلمه -سبحانه وتعالى- معنى ذلك أنه غير كائن، فمثل هذه القضية لا يمكن أن تحصل وأن تقع، هذا هو المعنى، ولا يحتاج إلى كثير من التكلفات التي يذكرها المتكلمون، ولسنا بحاجة إلى جدل ربما يثير في النفوس سؤالات وإشكالات، الناس في غنى عنها، ومعنى الآية ظاهر جداً ولله الحمد، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً} [سورة يونس(١٩)]، لم يصرح بالآية لكنه جاء بالمعنى، وفسر {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً} بقول ابن عباس -رضي الله عنه-: "**إن الناس كانوا على التوحيد عشرة قرون**"، وهذا أحسن ما تفسر به الآية.

وقوله: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً} أي: على التوحيد فاختلفوا، وليس المعنى كما يقول بعضهم: أنهم كانوا على الفطرة ثم بعد ذلك حصل لهم تغير، أو أن هؤلاء الناس كانوا على دين واحد من الشرك، نشئوا عليه ثم بعد ذلك تفرقوا واختلفوا، فمنهم من غير دينه، ومنهم من وحد الله -عز وجل-، وهذا ليس هو المراد، بعضهم يقول: هذه في قريش {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ} جعلوه على الشرك، وهذا غير صحيح، فالمعنى لعموم الناس، فجنس الناس كلهم كانوا على التوحيد والإيمان، عشرة قرون كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما-، ثم وقع الشرك في قوم نوح فاختلفوا، فعبد بعضهم غير الله -عز وجل-، وبقي آخرون على عبادة الله وتوحيده على الأصل.

وقوله: {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ} الآية، أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود؛ لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعدَ المؤمنين وأعنت الكافرين.

وابن كثير -رحمه الله- جمع بين معنيين، وهذا تفسير جيد، ومن السلف من فسر هذه الكلمة بأنه لا يعذب أحداً حتى يرسل إليه رسولاً {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [سورة الإسراء(١٥)] فلم يؤاخذهم الله -عز وجل- بعلمه السابق المتقدم، ولم يؤاخذهم بما وقع منهم حتى يبعث إليهم الرسل، فهذا معنى وهو معنى صحيح، {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} وكذلك أيضاً الإهلاك والمعاجلة بالعقوبة فإن الله -عز وجل- قد أجل لهم آجالاً وقدر لهم أقداراً فلا بد أن يبلغوا هذه الآجال، فلم يكن مجرد وقوع الكفر منهم سبباً لانقضاء آجالهم وإهلاكهم وإنما وقّتهم إلى وقت معلوم، فابن كثير -رحمه الله- جمع بين هذين المعنيين، أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود، وابن جرير -رحمه الله- فسرها بالمعنى الثاني: أجّل لهم آجالاً، وما ذكره ابن كثير أوسع في المعنى، وأبلغ، وما ذكره بعض السلف في معناها لا يخرج عن هذا، -والله تعالى أعلم-.

{وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ}[سورة يونس(٢٠)]، أي: يقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: "لولا أنزل على محمد آية من ربه"، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة، ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا} [سورة الفرقان(١٠-١١)]، وكقوله: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأَوَّلُونَ} [سورة الإسراء(٥٩)] الآية، يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة، ولهذا لما خير رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين إعطائهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا عذبوا، وبين إنظارهم اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيه -صلى الله عليه وسلم- إلى الجواب عما سألوا {فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ} أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور.

الله -تبارك وتعالى- يعلم ما يُصلحهم وما يحتاجون إليه، ويعلم ما سينزل من الآيات، ويعلم حال الخلق حينما تنزل الآيات، فهؤلاء كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا}، ثم إن الله -عز وجل- لا يستجيب لهؤلاء الكفار في كل ما طلبوه بحيث يقترحون الآيات، فإن هذا ليس من شأنهم، ولا يحق لهم هذا، فالله -عز وجل- قد أراهم من الآيات والدلائل الدالة على نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- ما يكفيهم، وإنما يسألون هذه الآيات ويطلبونها تعنتاً وتكلفاً.

{فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ} أي: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيّ وفيكم، هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته -صلى الله عليه وسلم- أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره فانشق فلقة من وراء الجبل وفلقة من دونه، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا ومما لم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً وتثبتاً لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عناداً وتعنتاً فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةَ} [سورة يونس(٩٦-٩٧)] الآية، وقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ} [سورة الأنعام(١١١)] الآية، ولما فيهم من المكابرة، كقوله تعالى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ} [سورة الحجر(١٤)] الآية، وقوله تعالى: {وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاء سَاقِطًا} [سورة الطور(٤٤)] الآية، وقال تعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} [سورة الأنعام(٧)]، فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوه؛ لأنه لا فائدة في جوابهم؛ لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم، ولهذا قال: {فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ}.

{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ * هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة يونس(٢١ – ٢٣)].

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك، {إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا} قال مجاهد: استهزاء وتكذيب، كقوله: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا} الآية، وفي الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل -أي مطر- ثم قال: ((هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟)) قالوا:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله ورسوله أعلم، قال: ((قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب)) [٣].

قوله: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ} "إذا" هذه شرطية، وإذا الثانية في قوله: {إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا} تسمى بالفجائية، يعني بمجرد ما تحصل لهم هذه الرحمة إذا بهم يسارعون إلى الإعراض والتكذيب والطغيان والبطر، كما قال الله -عز وجل-: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} [سورة العلق(٦-٧)]، وهذه عادة الإنسان إلا من -رحمه الله- ولطف به، فكان الإنعام باعثاً للشكر ولمزيد من العبودية، وقال: {إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا} فسر المكر بالتكذيب، والمكابرة، والاستهزاء.

وقوله: {قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا} [سورة يونس(٢١)]، أي: أشد استدراجاً وإمهالاً، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه.

يعني أن الله -عز وجل- يمكر بهؤلاء فيعطيهم ويغدق عليهم النعم، ويدرّ عليهم الأرزاق، وهم يزدادون بطراً وإعراضاً وعتواً على الله -جل جلاله-، فيكون هذا من قبيل الاستدراج، فالله -عزوجل- إذا كان يدرّ الأرزاق ويتابع الإنعام على الإنسان وهو في حال من الإعراض فإن ذلك يكون استدراجاً، {قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا} وهذه صفة وصف الله -عز وجل- بها نفسه في مقامات تكون كمالاً، ولكن ذلك لا يضاف إلى الله -عزوجل- على سبيل الإطلاق، وإنما يكون ذلك بقيد هو أن المكر يكون بالماكرين كما يقول بعض أهل العلم {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ} [سورة الأنفال(٣٠)]: إن هذا في المقابلة، أي يكون المكر بهؤلاء الذين يستحقونه، هذا هو المعنى -والله تعالى أعلم-، ولا يلزم أن يأتي ذلك بقيد مكرهم أو في مقابل مكرهم، بعضهم يسمي هذا مشاكلة وهي نوع من المجاز، فهذا غير صحيح، وهكذا ما يقال في الكيد.

والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير والنقير والقطمير، ثم أخبر تعالى أنه: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته {حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا}، أي: بسرعة سيرهم رافقين.

قوله: {يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} يسيركم في البر على الدواب التي تحملكم من مكان إلى آخر، ويسيركم في البحر على الفلك التي هداكم لصنعها فتنقلكم وتنقل معكم الأثقال إلى أماكن بعيدة لم يكن لكم أن تبلغوها إلا بشق الأنفس.

وقوله: {كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا} ذكر الريح، قال: {بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} وجاء في عبارات بعض السلف أن الريح تكون للعذاب، وهذا باعتبار الأغلب، وقولهم: كل ريح في القرآن فهي عذاب، هذه على كل حال ليست كلية بمعنى الكلية المعروف، وإنما هي أغلبية، والرياح للرحمة وهي التي تأتي بالمطر، وما أشبه ذلك، وتأتي الريح وتكون لغير العذاب كما في قوله: {بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ}، وهذه الآية على هذه القراءة فيها التفات كما هو ظاهر {حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ} هذا للمخاطب، {فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ} هذا للغائب، التفت

---

٣ رواه البخاري برقم (٩٩١)، كتاب الاستسقاء، باب قول الله تعالى: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} [سورة الواقعة(٨٢)]، قال ابن عباس: شكركم، ومسلم برقم (٧١)، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مُطرنا بالنوء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من المخاطب للغائب، وبعض المفسرين يذكر لهذا تعليلات لا تخلو من تكلف، ولكن يبقى الأصل والمعنى العام فيما يتعلق بالالتفات أنه أبلغ، وأن ذلك أدعى لنشاط السامع وتيقظه، ولفت انتباهه، -والله أعلم-.

فبينما هم كذلك {جَاءَتْهَا} **أي: تلك السفن** {رِيحٌ عَاصِفٌ} **أي: شديدة،** {وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ} **أي: اغتلم البحر عليهم،** {وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ} **أي: هلكوا،** {دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} **أي: لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يفردونه بالدعاء والابتهال، كقوله تعالى:** {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا} [سورة الإسراء(٦٧)]، **وقال هاهنا:** {دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ} **أي: هذه الحال،** {لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} **أي لا نشرك بك أحداً ولنفردنك بالعبادة هناك، كما أفردناك بالدعاء هاهنا، قال الله تعالى:** {فَلَمَّا أَنجَاهُمْ} **أي: من تلك الورطة،** {إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} **أي: كأنْ لم يكن من ذلك شيء،** {كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ} [سورة يونس(١٢)].

وهذه أيضاً "إذا" فجائية.

ثم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم} **أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث:** ((ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم)) [٤].

وقوله: {مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} **أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة،** {ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ} [سورة يونس(٢٣)] **أي: مصيركم ومآلكم،** {فَنُنَبِّئُكُم} **أي: فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.**

في قراءة حفص {مَتَاعَ} **بالنصب،** لكن القراءة الثانية وهي التي اعتمدها ابن كثير -رحمه الله- {مَتَاعُ} بالرفع، وهي متواترة، {مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} وفسرها بناء على هذا، قال: أي إنما لكم متاعٌ في الحياة الدنيا، هذا على قراءة الرفع، وقيل: إنها خبر، وقيل غير هذا، وقراءة النصب بعضهم يقول: هي مصدر، وقيل: مفعول لأجله، وقيل: منصوبة بنزع الخافض، وقيل غيره هذا.

---

٤ رواه أبو داود برقم (٤٩٠٢)، كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، والترمذي برقم (٢٥١١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، كتاب أبواب الطهارة، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩١٨)، وفي صحيح الجامع برقم (٥٧٠٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٢٤-٢٥) سورة يونس].

ضرب -تبارك وتعالى- مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أُنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أبٍّ وقضْب وغير ذلك، {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا} أي: زينتها الفانية، {وَازَّيَّنَتْ}: أي حسنت بما خرج من رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، {وَظَنَّ أَهْلُهَا} الذين زرعوها وغرسوها {أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا} أي: على جذاذها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: {أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا} أي: يابساً بعد الخضرة والنضارة، {كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ} أي: كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ} [(٢٤) سورة يونس]، أي: اختلط بسببه نبات الأرض، واشتبك بعضه ببعض، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ضرب -تبارك وتعالى- مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أُنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أبٍّ وقضْب وغير ذلك**".

الأبُّ: هو النبت الذي قد تهيأ للرعي وصار متهيئاً للجز، والقضْب: هو النبات الرطب كالبقول ونحو ذلك.

وقد قال الله -عز وجل- عن الحياة الدنيا: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا} [(٤٥) سورة الكهف] فبهجة الدنيا كالمطر النازل الذي تخرج الأرض به بهجتها وزينتها فتستهوي الناظرين، ثم ما يلبث عن قريب أن ييبس ويتغير وتتحول خضرته إلى صفرة حتى يصير بعد ذلك هشيماً تذروه الرياح، والله المستعان.

وقوله: {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ} [(٢٤) سورة يونس] الزخرف يقال للذهب كما قال الله -تبارك وتعالى- في سورة الزخرف: {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا} [(٣٣-٣٤) سورة الزخرف]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو الذهب، وشبّه ما يخرج من الأرض بألوانه حتى يكون حلة زاهية يكسوها بالزخرف، ومعنى الآية: حتى إذا أخذت الأرض رونقها ولونها الحسن.

وقال قتادة: {كَأَن لَّمْ تَغْنَ} كأن لم تنعم، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن.

ولهذا جاء في الحديث: ((يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس في النار غمسة فيقال له: هل رأيت خيراً قط، هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، ويؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا))[1]، وقال تعالى إخباراً عن المهلَكين {فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ} [(٦٧-٦٨) سورة هود].

قوله: {تَغْنَ}، أي: كأن لم تنعم، تقول: غنينا بالمكان يعني بقينا أو أقمنا به مدة ثم ارتحلنا عنه، ومن أراد أن يعرف هذا المعنى فليرجع إلى نفسه وينظر إلى أيام الصبا وماذا تمثل له بالنسبة إليه، فهو لا يجد شيئاً من متعها ولذاتها، ولعبها وإنما يجد ما يعانيه في ساعته ويكابده من هموم وآلام ومشقات وكد في طلب العيش، وتلك الأيام تلاشت، وإذا فارق الإنسان الحياة الدنيا ستكون ذكرى قصيرة عابرة كذكرى الطفولة، وإذا كان الإنسان في لحظاتها الأخيرة تكون كأنه ما مر عليه عمر طويل ذاق فيه الحلوة والمرة، وأنس واجتمع بمن يحب، وصار له من ألوان اللذات ما لربما ينسيه ذكر الله -عز وجل- فكل ذلك يتلاشى، وتبقى ذكرى عابرة لا طعم لها، فهذه طبيعة الحياة الدنيا، ولذلك تجد الرجل يكون من أكثر الناس ثروة وغنىً وتمتعاً في الحياة الدنيا، ثم بعد ذلك يتلاشى ويموت، ويوضع في حفرة لربما بجوار أفقر الناس، فلا يُختار له حتى في حفرته من يشاكلونه في الغنى والثروة.

ثم قال تعالى: {كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ} أي: نبيّن الحجج والأدلة {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعاً مع اغترارهم بها، وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها وتفلتها عنهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال في سورة الكهف {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا} [(٤٥) سورة الكهف] وكذا في سورة الزمر والحديد يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا.

وقوله تعالى: {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ} الآية، لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام، أي: من الآفات والنقائص والنكبات، فقال: {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٢٥) سورة يونس].

ذكر ابن كثير –رحمه الله- مناسبة قول الله –تبارك وتعالى-: {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ}، فقال: "**لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام، أي: من الآفات والنقائص والنكبات**"

ومعنى قوله: {دَارِ السَّلاَمِ} أي: دار السلامة من الآفات والنقائص والنكبات، بخلاف هذه الحياة الدنيا، فأعظم آفة فيها هو الموت يفسد على أهل النعيم نعيمهم، فهي ليست محلاً للإقامة ولا يشعر الإنسان فيها بالاستقرار،

---

[1] - رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صبغ أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤساً في الجنة (٤ / ٢١٦٢)، برقم (٢٨٠٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويشعر بأن إقامته مؤقتة مهما سكن من القصور، فمن سكن في شقة صغيرة ومن سكن في قصر واسع يشعرون جميعاً بأن إقامتهم مؤقتة.

وقال الحسن البصري -رحمه الله-: السلام هو الله، والجنة هي داره، وقال بعض أهل العلم: إن معنى قوله: {وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ}، أي: دار التحية؛ لأن ربهم يحييهم بالسلام: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} [(٤٤) سورة الأحزاب]، {سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَبٍّ رَّحِيمٍ} [(٥٨) سورة يـــس]، وتحييهم الملائكة، قال -تبارك وتعالى-: {يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [(٢٣-٢٤) سورة الرعد].

والراجح أن الجنة سميت بدار السلام؛ لأنها سالمة من كل آفة وعيب ونقص، فهي دار السعادة الكاملة واللذة التامة، لا يحصل فيها لون من ألوان الكدر الذي يحصل للناس في الدنيا.

عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً فقال: ((إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا فقال: اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه، فالله الملك والدار الإسلام والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول فمن أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها))[٢]. **رواه ابن جرير.**

وعن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان، يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، إن ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى))[٣]. **قال: وأنزل ذلك في القرآن في قوله: {والله يدعو إلى دار السلام} الآية. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.**

تدل هذه الأحاديث على أنه يجب على المؤمن ألا يغتر بالحياة الدنيا، وأن يكون إقباله على مستقبله الحقيقي في دار المقامة من النعيم الكامل، ويبتعد عن الفتن التي تجذبه وتستهويه إلى هذه الحياة الدنيا، وقد جاء في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))[٤].

{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٦) سورة يونس]، يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح الحسنى في الدار الآخرة، كقوله تعالى: {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [(٦٠) سورة الرحمن].

---

[2] - رواه الترمذي، كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الله لعباده (٥ / ١٤٥)، برقم (٢٨٦٠)، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة يونس (٢ / ٣٦٩)، برقم (٣٢٩٩).

[3] - رواه أحمد (٣٦ / ٥٢)، برقم (٢١٧٢١)، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

[4] - رواه مسلم، كتاب الرقائق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء (٨ / ٨٩)، برقم (٧١٢٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يخبر تعالى أن من أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح لهم الحسنى في الدار الآخرة، والحسنى هي الجنة.

وقال بعض أهل العلم: الحسنى هي المثوبة الحسنة، وهي وصف لمقدر محذوف، لكن الأصل عدم التقدير، مهما أمكن الاستغناء عن التقدير فهو أولى منه، والقاعدة أن الكلام إذا دار بين الاستقلال والإضمار فالأصل فيه الاستقلال، وأكثر السلف على أن الحسنى هي الجنة.

وقوله: {وَزِيَادَةٌ} هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته.

وقد رُوي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهم-، وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن صهيب -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلا هذه الآية: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى} وقال: ((إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو، ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويخرجنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فو الله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم))[٥]، وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة.

قول ابن كثير –رحمه الله- في الزيادة: "**هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضاً...**" هذا قول لبعض السلف.

وقال بعض أهل العلم: الحسنى هي لؤلؤة لها أربعة أبواب مجوفة، فقال هنا: ما يعطيهم من هذا النعيم.

قال: "**والرضا عنهم**" يعني الزيادة هي الرضا عن أهل الإيمان لحديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا))[٦]، وقال -عز وجل-: {وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [(٧٢) سورة التوبة].

قال: "**وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته**" وهذا القول جمع المعاني التي ذكرها السلف،

---

[5] - رواه أحمد (٣١ / ٢٧٠)، برقم (١٨٩٤١).

[6] - رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا (٤ /٢١٧٦)، برقم (٢٨٢٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو وجه حسن من التفسير، لكن الذي عليه كثير من علماء أهل السنة أن الزيادة المراد بها النظر إلى وجه الله –تبارك وتعالى- لأن الله عطف الزيادة على الجنة، والنعيم والقصر المجوف من لؤلؤ كله من الجنة، فدل على أن الزيادة أمر زائد على نعيم الجنة، ويدل على هذا المعنى ما ورد من تفسير النبي –صلى الله عليه وسلم- للزيادة بأنها النظر إلى وجه الله تعالى.

وقوله تعالى: {وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ} [(٢٦) سورة يونس] أي: قتام وسواد في عرصات المحشر، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة.

{وَلاَ ذِلَّةٌ} [(٢٦) سورة يونس]، أي: هوان وصغار، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [(١١) سورة الإنسان]، أي: نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين.

قوله: {وَلاَ يَرْهَقُ} أي: لا يلحق، وقال بعضهم: {وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ} أي: لا يغشى وجوههم.

وقال ابن كثير –رحمه الله- في القَتر: "**أي: القتام والسواد**" وبعضهم فسر القتم بالكآبة، وفسره البعض: بدخان النار، والأقرب –والله أعلم- في معنى قوله: {وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ} أي: سواد يعلوها.

وقول ابن كثير: "**في عرصات المحشر**" يعني أن الكفار والمجرمين يحشرون ويعرضون على النار تغشاهم الكآبة، ويكونون في حال من الخشوع، كما قال –تبارك وتعالى-: {خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ} [(٤٥) سورة الشورى]، وقال –سبحانه-: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(١٠٦-١٠٧) سورة آل عمران].

قوله: {وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٧) سورة يونس].

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك، {وَتَرْهَقُهُمْ} أي: تعتريهم وتعلوهم، {ذِلَّةٌ} من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ} [(٤٥) سورة الشورى] الآية، وقال تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} [(٤٢-٤٣) سورة إبراهيم] الآيات.

وقوله: {مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ} [(٢٧) سورة يونس]، أي: مانع ولا واقٍ يقيهم العذاب، كقوله تعالى: {يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} [(١٠ - ١٢) سورة القيامة].

قوله: {مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ} [(٢٧) سورة يونس] يعني: يعصمهم من الله، ويحول بينهم وبين عذابه وأخذه، ومن أهل العلم من قال: من عاصم يجعله الله -عز وجل- لهم، وهذا غير صحيح.

وقوله: {كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ} [(٢٧) سورة يونس] الآية إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كقوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(١٠٦-١٠٧) سورة آل عمران]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

، وقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ *وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ} [(٣٨-٤٠) سورة عبس] الآية.

قوله: {كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا} [(٢٧) سورة يونس] القِطع جمع قطعة، والمقصود: شدة الظلمة والسواد.

(سؤال) قوله –تبارك وتعالى- في سورة النساء: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ} [(٨٩) سورة النساء]، وقال في الآية التي بعدها: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ} [(٩١) سورة النساء] فهل هناك فرق في المعنى؟ وهل هناك كتب توضح مثل هذه الأمور؟

(الجواب): الأصل أن المعنى واحد ولكن الثَّقف أخص من مطلق الظفر بالشيء؛ لأن الثقف هو الإدراك بحذق، تقول: غلام ثقف أي: حاذق.

وهناك كتب تعتني بالمتشابه اللفظي، مثل كتاب "ملاك التأويل" لابن الزبير الغرناطي، وكتاب "درة التنزيل وغرة التأويل" للإسكافي، وكتاب "البرهان" للكرماني، وكتاب "فتح الرحمن كشف ما يلتبس في القرآن" لزكريا الأنصاري .

(سؤال) هل كل نبي ورد ذكره في القرآن رسول؟

(الجواب) هذا كلام فيه نظر، ولا أعلم قاعدة تدل على هذا المعنى، وبعضهم فرق بين النبي والرسول فقال: من أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه فهو رسول، ومن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي، ولكن هذا التفريق غير صحيح؛ لأن الله أخذ على أهل العلم وأهل الكتاب البلاغ والبيان.

وقال بعضهم: من أنزل عليه شريعة مستقلة فهو رسول ومن لم ينزل عليه فليس برسول، وهذا لا يخلو من إشكال، فعيسى -صلى الله عليه وسلم- ما نزلت عليه شريعة مستقلة، ومع ذلك فهو رسول، قال الله عنه {وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(٤٩) سورة آل عمران].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ}[سورة يونس(٢٨-٣٠)].

يقول تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ} أي: أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر، كقوله: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف(٤٧)].

{ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ} أي: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كقوله تعالى: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} [سورة يـــس(٥٩)]، وقوله: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} [سورة الروم(١٤)]، وفي الآية الأخرى: {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} [سورة الروم(٤٣)]، أي: يصيرون صدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب -تبارك وتعالى- لفصل القضاء، ولهذا قبل ذلك يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر: ((نحن يوم القيامة على كَوْم فوق الناس))[1].

كَوم بفتح الكاف أي: المكان المرتفع النشاز.

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: {مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} الآية، أنهم أنكروا عبادتهم وتبرءوا منهم كقوله: {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ} [سورة مريم(٨٢)] الآية، وقوله: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ} [سورة البقرة(١٦٦)]، وقوله: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء} [سورة الأحقاف(٥-٦)] الآية، وقوله في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم {فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} الآية، أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه أحمد في المسند (٦٤/٢٣)، برقم (١٤٧٢١)، وقال محققوه: حديث صحيح، واللفظ له، ومسلم بمعناه برقم (١٩١)، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٠/٦)، برقم (٢٧٥١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيقول الحافظ رحمه الله- في قوله: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} "أي: أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر"، وهذا هو أقرب المعاني، أن الله يحشر الأولين والآخرين ويجمعهم، كما قال الله -عز وجل-: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}[سورة الكهف(٤٧)]، وقال: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} [سورة هود(١٠٣)]، ومن أهل العلم من فسر ذلك بمعنى تحتمله الآية، وهو أنه يحشرهم جميعاً -العباد والمعبودين- ويوجه إليهم هذا الخطاب {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ} يعني يحشرهم وما يعبدون من دون الله، وهذا أيضاً دل عليه القرآن، والآية إذا كانت تحتمل معانيَ دل عليها القرآن أو السنة -دل على كل واحد منها- فإن الآية تحمل على هذه المعاني جميعاً، فالله -عز وجل- أخبر في القرآن أنه يحشر الأولين والآخرين ولا يغادر منهم أحداً، وأخبر أيضاً أنه يحشر الناس وما يعبدون من دون الله، والآية تحتمل معنىً ثالثاً وهو أن المراد {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} أي: أن الله يبعثهم من قبورهم، ويجمع ما تفرق من أبدانهم في التراب، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً))[٢]، فترجع إليهم أبعاضهم وأجزاؤهم التي ذهبت في الدنيا، وتفرقت في التراب، وهذه الأمور كلها حاصلة، والله -عز وجل- على كل شيء قدير، {ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ} مكانكم أي: الزموا مكانكم، {أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ} الشركاء: هم جعلوا هذه المعبودات شركاء لله -عز وجل-، فأضاف هؤلاء الشركاء إليهم {أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ} ووجه ذلك يمكن أن يقال والله تعالى أعلم: إنهم جعلوا هؤلاء شركاء لهم في أموالهم، {فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ} [سورة الأنعام(١٣٦)] فأضاف الشركاء إليهم والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ويمكن أن يكون ذلك باعتبار: أنهم شركاء لهم في هذا الخطاب وهذا أضعف من الأول، {نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} نبعث العباد والمعبودين، أو يبعث العابدين والمعبودين، ويقول لهم: {مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ}، ثم يفصل بينهم ويفرق بينهم كما قال الله تعالى: {فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} المزايلة: هي المفارقة، {فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} أي: فصلنا وفرقنا بينهم، فيسأل هؤلاء ويسأل هؤلاء، فيوجه الخطاب إلى المعبودين، ويتبرءون من هؤلاء الذين عبدوهم {وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ}، بعض أهل العلم نظر إلى هذا المعنى وأنهم قالوا: {إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ} فقال: هذا في مثل عيسى -صلى الله عليه وسلم- وعزير والملائكة ومن عُبد من دون الله من الصالحين، فهم يتبرءون منهم ويقولون: {مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ}، وكنا عن عبادتكم غافلين أصلاً، ومن أهل العلم من حمل هذا على الجمادات من الأوثان والأصنام التي لا تشعر بعبادتهم إياها، ومنهم من جعل ذلك عاماً حتى فيمن عُبد وهو راضٍ، إذا رأى هول ذلك اليوم فإنه يتبرأ منهم، وقوله: {مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} أي: لم نأمركم بذلك، لكن قوله: {مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} ليس بمعنى لم نأمركم بذلك، ويمكن أن يقصدوا بـــ {مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} أنهم كانوا يعبدون الجن مثلاً أو يعبدون الشيطان، ومعلوم أن العرب كانوا يعبدون الأوثان من دون الله -عز وجل- التي ربما خاطبتهم أو سمعوا منها كلاماً، وذلك أن هذه الأصنام والأوثان يوجد معها من الشياطين ما يضللهم، وهذا يحصل من أجل فتْن الناس، وقد حصل عند

---

٢ - رواه مسلم برقم (٢٨٥٩)، من حديث عائشة -رضي الله عنها-، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قطع العزَّى، لما أرسل النبي -صلى الله عليه وسلم- إليها خالد بن الوليد وهي بيت على سمرات، فقطع السمرات، ثم رجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخبره أنه ما فعل شيئاً، فرجع وإذا بامرأة سوداء ناشرة شعرها تدعوا بالويل والثبور فعلاها بالسيف، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أخبره بذلك قال: ((تلك العزى))[٣]، فهذه امرأة شيطانة كانت تضلل الناس، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} أي: ما كنا نشعر بها، ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، معنى ذلك أن ابن كثير حمل المعنى على العموم، كل من عُبد من دون الله -عز وجل-، سواء كان راضياً أو لم يكن راضياً فهو داخل في هذا الخطاب، بمعنى أنهم يتبرءون منهم ومن عبادتهم.

وقال تعالى: {هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ} أي: في موقف الحساب يوم القيامة تَختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير أو شر.

قوله: {تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ} تَختبر، وكثير من الناس يظن أنه في الدنيا على الجادة، وأنه على شيء، ويعيش في أوهام واسعة كبيرة، فيوم القيامة تعرف وتدرك وتختبر كل نفس ما أسلفت، يعرف عمله وأنه كان مضيعاً ومفرطاً وضالاً عن سواء الصراط، وفي قراءة حمزة والكسائي {تَتْلُو} أي: تتبع، {كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ}، تتلو على هذه القراءة المتواترة الأخرى {تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ} فسره بعض أهل العلم بأنها تتلو كتاب العمل {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [سورة الإسراء(١٤)]، {تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ}، ويحتمل أنه يتبع ما أسلف من عمل، وقيل: {تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ} أي: تعاين، والقراءتان كل قراءة لها معنى، وإذا كانت القراءتان لكل واحدة منهما معنى يخصها فهما بمنزلة الآيتين، فقراءة {تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ} أي: تتبع، وقراءة {تَبْلُو} أي: تختبر، وبين المعنيين نوع ملازمة وارتباط؛ وذلك أن الإنسان في يوم القيامة يتجلى ويتبيّن له حاله التي كان عليها ويعرف حقيقة عمله، وتضييعه وتفريطه، فإذا عرف ذلك وانكشف عنه الغطاء فإنه يتبع عمله ويقرأ كتابه.

كقوله تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}[سورة الطارق(٩)]، وقال تعالى: {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [سورة القيامة(١٣)]، وقال تعالى: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [سورة الإسراء(١٣-١٤)].

وقوله: {وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ}[سورة يونس(٣٠)] أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، {وَضَلَّ عَنْهُم} أي: ذهب عن المشركين {مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

{قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}[سورة يونس(٣١-٣٣)].

٣- رواه النسائي في السنن الكبرى (٤٧٤/٦)، برقم (١١٥٤٧)، وأبو يعلى في مسنده (١٩٦/٢)، برقم (٩٠٢)، وقال محققه حسين سليم أسد: إسناده صحيح، وانظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١٤٦/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلهيته، فقال تعالى: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقاً بقدرته، ومشيئته فيخرج منها حبا {وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً}، {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ}، {فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ}، {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ} [سورة الملك(٢١)]، وقوله: {أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ} [سورة يونس(٣١)] أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها، كقوله تعالى: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ}[سورة الملك(٢٣)] الآية، وقال: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ}[سورة الأنعام(٤٦)] الآية، وقوله: {وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ} أي: بقدرته العظيمة ومنته العميمة، وقوله: {وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ} أي: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، {يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}[سورة الرحمن(٢٩)]، فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له خاضعون لديه، {فَسَيَقُولُونَ اللّهُ} أي: وهم يعلمون ذلك ويعترفون به: {فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟، وقوله: {فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ} الآية أي: فهذا الذي اعترفتم أنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ} أي: فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له، {فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء، وقوله: {كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ} الآية، أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده الذي بعث رسله بتوحيده فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: {قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}[سورة الزمر(٧١)].

{قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [سورة يونس(٣٤-٣٦)].

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره وعبدوا من الأصنام والأنداد، {قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} أي: من بدأ خلق هذه السماوات والأرض ثم ينشئ ما فيها من الخلائق، ويفرق أجرام السماوات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً؟ {قُلِ اللّهُ} هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل؟! {قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ} أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال وإنما يهدي الحيارى والضُّلال ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد اللهُ الذي لا إله إلا هو، {أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى} أي: أفيَتبِع العبدُ الذي يهدي إلى الحق ويُبصِّر بعد العمى أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبكمه؟، كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم -عليه السلام-

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنه قال: {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا} [سورة مريم(٤٢)]، وقال لقومه: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [سورة الصافات(٩٥-٩٦)] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: {فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} أي: فما بالكم أن يُذهَب بعقولكم، كيف سوّيتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟، وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة، ثم بيّن تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً وإنما هو ظن منهم، أي توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً، {إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} تهديد لهم ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

{وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ} [سورة يونس(٣٧-٤٠)].

هذا بيان لإعجاز القرآن وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ} أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر، {وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} أي: من الكتب المتقدمة، ومهيمناً عليه ومبيناً لما وقع فيه من التحريف والتأويل والتبديل.

وقوله: {وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً حقّاً لا مرية فيه من الله رب العالمين.

وقوله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} أي: إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً ومَيْناً: "إن هذا من عند محمد"، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أنتم بسورة مثله أي من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان، وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بمن شاءوا، وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [سورة الإسراء(٨٨)]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[سورة هود(١٣)]، ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، وكذا في سورة البقرة وهي مدنية تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ} [سورة البقرة(٢٤)] الآية. هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به، ولهذا آمن من آمن بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به وأفهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً، كما عرف السحرة لعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى -عليه السلام- لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله، وكذلك عيسى -عليه السلام- بُعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله، ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان هذا الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً))[٤].

وقوله: {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه {وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} أي: ولم يُحصِّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً، {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} أي: من الأمم السالفة، {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم، وقوله: {وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ} الآية، أي: ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، {وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ} بل يموت على ذلك ويبعث عليه، {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ} أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كُلاً ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو.

قوله -تبارك وتعالى-: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ} {أَمْ} هذه منقطعة بمعنى بل، وقوله -تبارك وتعالى-: {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}، يقول الحافظ -رحمه الله-: "يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه"، وقال في قوله: {وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}: "أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق"، والتأويل يأتي بمعنى التفسير، وبمعنى ما يئول الشيء إليه، فتأويل الخبر وقوع المخبر به، وتأويل الأمر فعل المأمور، فنصوص الوعيد التي جاءت في القرآن وما يذكره الله -عز وجل- من الحساب والجزاء وبعث الأجساد وما أشبه هذا، إذا حصل فهو تأويل ما أخبر عنه القرآن، كما قال الله -عز وجل-: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا}[سورة الأعراف(٥٣)] أي: يحصل حينما يتحقق ما أخبر عنه القرآن من وقوع الجزاء والحساب والقيامة، وما أخبر الله عنه في هذا القرآن من الوجل والأهوال والأمور العظام عند ذلك يقول الذين نسوه من قبل، أي: تركوه، وأعرضوا عنه، {قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا} فنتخلص مما نحن فيه، {أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} فيمكن أن يفسر التأويل بهذا المعنى،

٤- رواه البخاري برقم (٤٦٩٦)، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، ومسلم برقم (١٥٢)، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}، قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ} "أي: ومن هؤلاء الذين بُعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع به، ومنهم من لا يؤمن بك"، ومن أهل العلم من فسره بمعنى آخر، {وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ} يعني يعلم أنه حق، ولكنه يجحد ذلك عتواً وإعراضاً وتكبراً وعناداً، {وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ} هو لا يصدق أنه من عند الله، وبعضهم يقول: {وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ} أي: يؤمن به أي في المستقبل، ولا حاجة لهذا التفسير، وبعضهم حمل الضمير في الموضعين على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فبين المعنيين ملازمة، فالذين يؤمنون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- يؤمنون بما جاء به وهو القرآن، والذين يؤمنون بالقرآن لا شك أن هذا يقتضي أنهم يؤمنون بالرسول -عليه الصلاة والسلام-، والسياق أقرب إلى أن ذلك يراد به القرآن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ * إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[سورة يونس(٤١-٤٤)].

يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: وإن كذبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم {فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ} كقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} [سورة الكافرون(١ - ٢)] **إلى آخرها، وقال إبراهيم الخليل -عليه السلام- وأتباعُه لقومهم المشركين: {إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}** [سورة الممتحنة(٤)] **الآية.**

وقوله: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} أي: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان، وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم -وهو الأطرش-، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله.

{وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ} أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم، والدلالة الواضحة على نبوتك لأولى البصائر والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار، {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا}[سورة الفرقان(٤١)] **الآية، ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً وإن كان قد هدى به من هدى، وبصّر به من العمى وفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، وفي الحديث عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه -عز وجل-: ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)) إلى أن قال في آخره: ((يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))[1]. رواه مسلم بطوله.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه الإمام مسلم برقم (٢٥٧٧)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} جاء بفعل الاستماع بصيغة الجمع {يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ}، وفي الموضع الآخر في النظر قال: {وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ} بالإفراد، فالفعل يستمعون روعي فيه معنى مَن، فإن {مَّن} اسم موصول، وهو من صيغ العموم، فهو وإن كان في ظاهره الإفراد إلا أنه بمعنى الجمع، وأتى الفعل {ينظر} بالإفراد في قوله: {وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ}، روعي فيه أيضاً لفظ {مَن}، وهذا كثير في القرآن، تارة يراعى المعنى، وتارة يراعى اللفظ، مثل هاتين الآيتين، وأتى بالجمع في يستمعون، والإفراد في ينظر، باعتبار أن السمع أشمل، وأن الذين يستمعون أكثر من الذين يشاهدون؛ لأن الذين يشاهدون قد يحيطون به ومَن وراءهم لا يرى، أما السمع فإن الإنسان يسمع ما لا يبصر، والله أعلم.

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}[سورة يونس(٤٥)].

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عَرَصات القيامة: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ} الآية، كقوله: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ} [سورة الأحقاف(٣٥)]، وكقوله: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [سورة النازعات(٤٦)]، وقال تعالى: {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} [سورة طـه(١٠٢-١٠٤)]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ}[سورة الروم(٥٥)] الآيتين، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة، كقوله: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[سورة المؤمنون(١١٢ - ١١٤)]، وقوله: {يَتَعَارَفُونَ} أي: يعرف الأبناء الآباء، والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه، {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ} [سورة المؤمنون(١٠١)] الآية، وقال تعالى: {وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا} [سورة المعارج(١٠)] الآيات.

وقوله: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}[سورة يونس(٤٥)]، كقوله تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} [سورة المرسلات(١٥)] لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، {أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [سورة الزمر(١٥)] ولا خسارة أعظم من خسارة من فُرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

قوله: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ} يحتمل أن يكون ذلك في البرزخ، ويحتمل أن يكون في الدنيا، وبقاء الناس في البرزخ حتى يخرجوا من قبورهم يكون ذلك البقاء كأنه مدة يسيرة -والله تعالى أعلم-، ومما يدل على هذا قصة الرجل الذي قبضه الله –جل وعلا- ومعه حماره وطعامه كما قص الله -عز وجل-: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [سورة البقرة(٢٥٩)]، فالله أماته مائة عام ثم بعثه، قال: {كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} هو لا يقصد أنه لبث في الدنيا، وإنما بعد موته، وأصحاب الكهف بقوا ثلاثمائة وتسع سنوات فلما استيقظوا سأل بعضهم بعضاً {كَمْ لَبِثْتُمْ}، فقالوا: {لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}، فالبقاء في البرزخ إذا قام الإنسان منه يتراءى له أنه مدة يسيرة جداً، وقد يكون بقي في هذا البرزخ آلاف السنين، وهكذا مدة الحياة التي قضاها الإنسان تكون بالنسبة إليه قصيرة حينما يقوم من قبره؛ كأنها حلم مر به ثم انقضى، فالإنسان ما يذكره من أيامه ومتعه ولذاته، كأنه شيء يسير مر عليه ثم انتهى، فمن السلف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من قال: إن هذه الآية {كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ} في البرزخ، والمشهور أن المراد بها الحياة الدنيا -والله أعلم-، وإن كان لا يمتنع أن يكون المراد بها البرزخ، فليست بمصرِّحة أن المراد الحياة الدنيا، لكن كأن الذي تدل عليه دلالة أظهر وأقرب أن المقصود البقاء في الحياة الدنيا، فقال: {كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ}، وكما في الآيات التي أوردها المصنف -رحمه الله- {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}، {يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} وهذا لا يعارض الآيات الأخرى كقوله: {يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا}، وكذلك {إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} ولا منافاة في هذا فبعضهم يذكر أنه لبث مدة ساعة، وبعضهم يزيد وبعضهم ينقص، فهذه أقوالهم، فقوله: {يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ} يحتمل أن يكون هذا من تلك الساعة من النهار في الدنيا، أي: كأن مكثهم في الدنيا هذا المكث القصير كأنه ساعة تعارفوا فيها ثم انقضت، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، والذي عليه عامة المفسرين أن المراد بذلك في الآخرة {يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ}، منهم من يفهم أنهم إذا قاموا من قبورهم يحصل بينهم التعارف، وحاولوا أن يجمعوا بين هذه الآية على هذا المعنى وبين آيات أخرى كقوله: {وَلَا يَتَسَاءلُونَ} [سورة المؤمنون(١٠١)] أي: لا يسأل بعضهم بعضاً، والآيات التي تدل على أن كل إنسان مشغول بنفسه، وكقوله: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ} [سورة عبس(٣٤)] إلى آخره، فقالوا: إن القيامة يوم طويل، فحينما يقومون من قبورهم يحصل بينهم هذا التعارف، ثم بعد ذلك يشتغل كل أحد بنفسه، وعامة أهل العلم يقولون: إن قوله: {يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ} يعني أن بعضهم يعرف بعضاً، يعرف أقاربه ولكنه في شغل، {يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ *وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ} [سورة المعارج(١١-١٣)]، فربما يأتي الوالد إلى ولده ويطلب منه حسنة، فتنقطع بينهم العلائق والوشائج والروابط التي كانت في الدنيا، كما قال الله -عز وجل-: {فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ}، والذين كان بينهم المؤاخاة والمحبة والمودة في الحياة الدنيا على غير طاعة الله -عز وجل-، تكون حالهم كما أخبر الله -تبارك وتعالى-: {الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [سورة الزخرف(٦٧)]، فهؤلاء يعرفون بعضاً، لكن تتحول مؤاخاتهم إلى عداوة، والمشهور أن هذا التعارف المقصود به أنه يراه كما قال الله -عز وجل-: {يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ} [سورة المعارج(١١)] هو يراه ويعرفه ولكنه ينشغل عنهم بنفسه ونجاته -والله تعالى أعلم-.

{وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}[سورة يونس(٤٦-٤٧)].

يقول تعالى مخاطباً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ} أي: ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم، أو نتوفينك فإلينا مرجعهم، أي مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك.

وقوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ} قال مجاهد: يعني يوم القيامة {قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ} الآية، كقوله تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} [سورة الزمر(٦٩)] الآية، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشر موضوعٌ شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً، أمّة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويقضى لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق))[٢] فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم} يحتمل أن يكون هذا في الدنيا، يدعوهم إلى الإيمان، ثم بعد ذلك يقضي الله -عز وجل- بينه وبين قومه، ويحتمل أن يكون ذلك في الآخرة، وهذا هو الأقرب الذي دل عليه ظاهر القرآن، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء} [سورة الزمر(٦٩)]، فالأنبياء يأتون وكل نبي يأتي إلى قومه يوم القيامة، ثم يشهد الشهداء، ويحكم الله -عز وجل- بين هؤلاء، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، ويحتمل المعنى الآخر في قول عيسى -عليه الصلاة والسلام-: {وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ}[سورة المائدة(١١٧)]، فهذا في الدنيا، والله -عز وجل- يسأله يوم القيامة: {أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ} [سورة المائدة(١١٦)]، وكذلك يقول الله -تبارك وتعالى-: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ}[سورة الأعراف(٦-٧)] فكل هذا يوم القيامة، فيسأل الرسل عن أقوامهم، يُسألون عن البلاغ، ويُسأل هؤلاء الأقوام عن الإجابة {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [سورة القصص(٦٥)]، ويوم يناديهم بهذا النداء ويسألهم هذا السؤال {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء} [سورة القصص(٦٦)]، -والله تعالى أعلم-.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ* أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ} [سورة يونس(٤٨-٥٢)].

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة لهم فيه، كقوله: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} [سورة الشورى(١٨)] **أي: كائنة لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- إلى جوابهم فقال: {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا}** [سورة يونس(٤٩)] **الآية، لا أقول إلا ما علَّمني ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعني الله عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها، ولكن {لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} أي: لكل قرن مدة من العمر مقدرة، فإذا انقضى أجلهم {فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}** [سورة يونس(٤٩)] **كقوله: {وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا}** [سورة المنافقون(١١)] **الآية، ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال: {قُلْ**

٢- رواه البخاري برقم (٨٣٦)، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، ومسلم برقم (٨٥٥)، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، بدون زيادة: ((المقضي لهم قبل الخلائق))، فهي عند مسلم برقم (٨٥٦)، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، ولفظ الحديث قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق)).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا} [سورة يونس(٥٠)] أي: ليلاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون {أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} [سورة يونس(٥١)] يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا}[سورة السجدة(١٢)] الآية، وقال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [سورة غافر(٨٤-٨٥)].

{ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ}[سورة يونس(٥٢)] أي: يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتاً وتقريعاً، كقوله: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الطور (١٣ - ١٦)].

{وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}[سورة يونس(٥٣-٥٤)].

يقول تعالى: {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ} أي: المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام تراباً {قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ} أي: ليست صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم فـ {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [سورة يـــس(٨٢)]، وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} [سورة سبأ(٣)]، وفي التغابن {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة التغابن(٧)]، ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، {وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ} أي: بالحق، {وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}.

قوله: {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ} هذا على سبيل الاستهزاء والسخرية والتهكم بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، ويحتمل أن يكون المراد القرآن، ويحتمل أن يكون المراد البعث والآخرة، وقول من قال: إنه العذاب، يدخل في هذا، {أَحَقٌّ هُوَ} أحق قيام الساعة، وهذا هو الأقرب -والله أعلم- أن السؤال عن هذا وليس عن القرآن؛ لأن الله -عز وجل- ذكر قبله ما يتعلق بالبعث والساعة، {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، وبعد ذلك جاءت هذه الآية: {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ}، وكذلك ما بعده من قوله: {وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ}، وقوله: {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ}، كل هذا في البعث والآخرة، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ}، يحتمل أن يكون الذين أسروا الندامة هم عموم المكذبين بالبعث، أسروا الندامة من أجل أن لا يشمت بهم أهل الإيمان، فلا زال عندهم شيء من الجلد، وفي نفوسهم شيء من الأنفة، أسروا الندامة، رأوا الحقائق وشاهدوا وعاينوا تلك الغيوب التي أخبرهم عنها القرآن، رأوها عالماً مشهوداً، فعرفوا ما كانوا فيه من الباطل والمكابرة فأسروا الندامة، ويحتمل أن يكون المراد كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا {وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ} هنا ما ذَكَرَ مَن الذين أسروا الندامة، وقال كثير من المفسرين ومنهم ابن جرير -رحمه الله-: {وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ} يعني أسرها الرؤساء عن الأتباع، فهم الذين أضلوهم وأغووهم وقالوا لهم: هذا كذب، ولا يمكن أن يكون، فلما رأى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأتباع الحقائق أسقط في أيديهم، فأسرّ هؤلاء الرؤساء الندامة كأنهم تخوفوا من الأتباع أن يعنفوهم، وهذا يحصل كما في قوله تعالى: {رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا} [سورة الأعراف(٣٨)]، و{وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا}[سورة البقرة(١٦٧)]، و{هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا} وهكذا.

{وَقُضِيَ بَيْنَهُم} يحتمل أن يكون المعنى وقضي بين هؤلاء الناس، ويحتمل أن يكن المراد وقضي بين الرؤساء والأتباع كما قال الله -عز وجل- حينما يدخلون النار: {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ}[سورة غافر(٤٧)]، فيحصل بينهم جدل ومحاجة، أولئك الرؤساء يقولون: {إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} [سورة غافر(٤٨)].

{أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[سورة يونس(٥٥-٥٦)] **يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأن وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار.**

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [سورة يونس(٥٧-٥٨)].

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ} أي: زاجر عن الفواحش، {وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ} أي: من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، {وَهُدًى وَرَحْمَةٌ} أي: يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كقوله تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا} [سورة الإسراء(٨٢)]، وقوله: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء} [سورة فصلت(٤٤)] الآية، وقوله تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ} أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به، {هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة.

قوله: {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ} فضله: بعضهم فسره بالإسلام، وأن الرحمة هي القرآن، يعني {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ} أي ما أنزل عليهم من هذا القرآن، وما أعلمهم الله -عز وجل- على يد نبيه -صلى الله عليه وسلم-، فمن السلف من فسر الفضل بهذا، والرحمة بالقرآن، ومنهم من عكس، فقال: {بِفَضْلِ اللّهِ} يعني بالقرآن، والرحمة يعني الإسلام، وابن القيم -رحمه الله- جمع بين هذه المعاني {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ} بفضله وبرحمته بما أنزل من القرآن وهدى إلى الإسلام، فالقرآن يهدي للتي هي أقوم، وهو كتاب الله الذي يبين فيه عن الإسلام، فمن اتبعه فهذا هو الإسلام، ولا منافاة بين المعنيين، {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ}، هذا هو الفرح المطلوب الذي يحبه الله -عز وجل-، {هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} أي: من حطام الدنيا وزهرتها الفانية، يعني يفرحون بالإسلام ويفرحون بالقرآن وبتعلمه والاشتغال به، هذا الذي يُفرح به، وليس العقارات والأموال والتجارات والمكاسب الدنيوية الحقيرة، وإنما هذا الذي ينبغي أن يُشتغل به، وأن تعقد عليه الخناصر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فائدة من كتاب أضواء البيان للإمام الشنقيطي رحمه الله:

قوله تعالى: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ} [سورة المؤمنون(١١٢-١١٣)] قال الشنقيطي -رحمه الله-:

في هذه الآية سؤال معروف وهو أنهم لما سئلوا يوم القيامة عن قدر مدة لبثهم في الأرض في الدنيا، أجابوا بأنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم مع أنه قد دلت آيات أخر على أنهم أجابوا بغير هذا الجواب، كقوله تعالى: {يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا}[سورة طــه(١٠٣)]، والعشر أكثر من يوم أو بعضه، وكقوله تعال: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} [سورة الروم(٥٥)]، والساعة أقل من يوم أو بعضه، وقوله: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [سورة النازعات(٤٦)]، وقوله: {كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ}، وقوله تعالى: {لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة الأحقاف(٣٥)] وقد بيّنا الجواب عن هذا السؤال في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في الكلام على هذه الآية بما حاصله: أن بعضهم يقول: {لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} ويقول بعض آخر منهم: لبثنا ساعة، ويقول بعض آخر منهم: لبثنا عشراً، والدليل على هذا الجواب من القرآن أنه تعالى بيّن أن أقواهم إدراكاً وأرجحهم عقلاً وأمثلهم طريقة هو من يقول: إنهم ما لبثوا إلا يوماً واحداً، وذلك في قوله تعالى: {يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} [سورة طــه(١٠٣ -١٠٤)] فالآية صريحة في اختلاف أقوالهم، وعلى ذلك فلا إشكال، والعلم عند الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ} [سورة يونس(٥٩-٦٠)].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يُحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايا، كقوله تعالى: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا} [سورة الأنعام(١٣٦)] **الآيات.**

وروى الإمام أحمد عن مالك بن نضلة -رضي الله تعالى عنه- قال: أتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا رثُّ الهيئة، فقال: ((هل لك مال؟)) قلت: نعم، قال: ((من أي المال؟))، قال: قلت: من كل المال من الإبل والرقيق والخيل والغنم، فقال: ((إذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ عليك))، قال: ((هل تنتج إبلك صحاحاً آذانها فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول هذه بحر، وتشق جلودها وتقول: هذه صُرُم، وتحرمها عليك وعلى أهلك؟))، قال: نعم، قال: ((فإنّ ما آتاك الله لك حل، ساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك))[1] **وذكر تمام الحديث، وهذا حديث جيد قوي الإسناد.**

وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله، أو أحل ما حرم الله بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال: {وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: ما ظنهم أن يُصنَع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة؟.

وقوله: {إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا، قلت: ويحتمل أن يكون المراد {لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ} بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً، وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

١ - رواه أحمد في المسند (٢٢٣/٢٥)، برقم (١٥٨٨٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، بلفظ: ((أتيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا قشف الهيئة... الحديث))، والحاكم في المستدرك (٢٠١/٤)، برقم (٧٣٦٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والطبراني في المعجم الكبير (٢٧٧/١٩)، برقم (٦٠٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً} هذا الاستفهام يفيد الإنكار، وإنزال الرزق، يعني الرزق الذي جعلوا منه حراماً وحلالاً، كما ورد في هذا الحديث، وما ورد في سورة الأنعام {وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ} [سورة الأنعام(١٣٨)]، فما يفعلونه في حروثهم، وزروعهم وأنعامهم من ترهات الجاهلية في التحريم والتحليل بغير برهان من الله -تبارك وتعالى- فهو داخل في هذا، فقوله: {مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ} إنزال الرزق باعتبار أن خزائن الرزق بيد الله -تبارك وتعالى-، وكما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء} [سورة الشورى(٢٧)]، فهو الذي ينزل الرزق، ولا إشكال في الحرث والأنعام والتعبير عنهما بالنزول، فأصل هذه المادة النزول من أعلى إلى أسفل، حتى إن بعض أهل العلم قال في قول الله -تبارك وتعالى-: {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ} [سورة الحديد(٢٥)]: نزل من السماء، وكذا في قوله: {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [سورة الزمر(٦)]، إما باعتبار أن الله أنزل أصلها من السماء، أو باعتبار أن ذكورها تنزو على إناثها، أو باعتبار أن المولود حينما يقع منها على الأرض، وهذا كله فيه معنى النزول.

فخزائن الأرزاق كلها بيد الله -عز وجل- كما في قوله: {وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء} [سورة الشورى(٢٧)]، ومن أهل العلم من يقول: إن الله ينزل الغيث فتحيا به الأرض ويرعاه الحيوان.

{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [سورة يونس(٦١)].

يخبر تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض {وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}، كقوله: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}[سورة الأنعام(٥٩)]، **فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [سورة الأنعام(٣٨)] الآية، وقال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}**[سورة هود(٦)] **الآية، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟، كما قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ *وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} [سورة الشعراء(٢١٧-٢١٩)] ولهذا قال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ}** [سورة يونس(٦١)] **أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء، نحن مشاهدون لكم راءون سامعون، ولهذا قال**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

-صلى الله عليه وسلم- لما سأله جبريل -عليه السلام- عن الإحسان: ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[٢].

قوله: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ}، {وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ} الضمير في {مِنْهُ} يحتمل أن يرجع إلى الشأن، {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ} باعتبار أنه أقرب مذكور، وهو الوحيد في اللفظ الذي يمكن أن يرجع إليه الضمير بالنظر إلى الألفاظ المعبر بها، وبهذا قال بعض أئمة اللغة كالزجّاج، وأحسن من هذا -والله تعالى أعلم-: أنه يرجع إلى معلوم من السياق وإن لم يكن مصرحاً به، وهو الكتاب، فالضمير أحياناً يرجع إلى ما يفهم من السياق، وإن لم يرد له ذكر، وهذا كثير في القرآن كقول الله -عز وجل-: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [سورة القدر(١)] فالضمير يرجع إلى القرآن، ولم يسبق له ذكر، فالضمير في قوله: {مِنْهُ} أي: من الكتاب، فقوله: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ} يعني: من الكتاب، وما تتلو من آي، ما تقرأ من القرآن {إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} وهذا اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، والخطاب في قوله: {وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ} يحتمل أن يكون للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأمته تبع له في ذلك؛ لأن الخطاب في أوله جاء على سبيل الإفراد {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ} يعني يا محمد -صلى الله عليه وسلم-، وأمته تبع له في هذا، ثم بعد ذلك جاء الضمير بصيغة الجمع {وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ}، وكقوله: {{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} [سورة الطلاق(١)] بصيغة الجمع مع أن أول الخطاب صريح بأنه موجه للنبي -عليه الصلاة والسلام-، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يخاطَب ويكون هذا الخطاب موجهاً لأمته، وهذا في كثير من المواضع من القرآن، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ} [سورة الإسراء(٢٣)]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- مات أبواه وهو في بطن أمه، وماتت أمه وهو صغير، فحينما نزلت عليه هذه الآيات لم يكن منهم أحد على قيد الحياة، فالخطاب موجه للأمة، فصيغة الجمع في قوله {وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ} يمكن أن يُقال: إنه جاء على سبيل التفخيم والتعظيم للنبي -صلى الله عليه وسلم- فجاء بصيغة الجمع، ولا حاجة لهذا؛ لأن الخطاب متوجه للأمة، كما سبق، ومن أهل العلم من يقول: إن الخطاب موجه للمشركين، {إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} بعضهم يقول: المراد به القرآن، بمعنى أنهم يخوضون خوضاً باطلاً في القرآن، فيقولون فيه ما لا يليق من أنه سحر أو كهانة أو شعر أو نحو هذا، وهذا وإن قال به بعض أهل العلم إلا أنه بعيد؛ لأن الضمير في قوله: {إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} يرجع إلى أقرب مذكور وهو العمل، أي تفيضون في هذا العمل، وظاهر الخطاب موجه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ولأمته، ولو كان هذا الخطاب يقصد به أهل الإشراك وأن الإفاضة في هذا العمل هي الخوض في القرآن بالاستهزاء وما أشبه ذلك لما كان الخطاب بهذه الصيغة، ولقال الله -عز وجل- مثلاً: وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن، ولا يعملون من عمل إلا كنا عليهم شهوداً إذ يفيضون فيه، فالخطاب جاء على نسق واحد {وَلاَ

---

٢ - رواه البخاري برقم (٥٠)، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، ومسلم برقم (٨)، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} والنبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه لم يكونوا، حاشاهم من مثل هذا، والمقصود بالإفاضة في العمل المشار إليه، {وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [سورة الطلاق(١٢)]، {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ} [سورة التوبة(١٠٥)] فيرى العباد ويعلم متقلبهم ومثواهم، وكل عمل صغير أو كبير فالله -عز وجل- شاهد على خلقه فيه، وهذا من معاني اسمه الشهيد، فهو مشاهد لخلقه شاهد على أعمالهم مطلع عليها، محيط بهم، والفرق بينه وبين العليم، أن الشهيد فيه معنى الحضور، وهذا قدر زائد على مجرد العلم.

{أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة يونس(٦٢-٦٣)].

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقياً كان لله ولياً، {لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} أي: فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة، {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} على ما وراءهم في الدنيا.

روى ابن جرير عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء))، قيل: من هم يا رسول الله؟ لعلنا نحبهم، قال: ((هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس))، ثم قرأ: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}[٣].

هذه الآية فيها بيان جلي وإيضاح لا يحتاج معه إلى خزعبلات الصوفية وترهاتهم في تفسير الولاية، بحيث أضافوا ذلك إلى طائفة من المجاذيب والمجانين والفجرة، وحملوا فجورهم على أنه تقوى وصلاح، وأن هذا الفجور هو فيما يبدو للمحجوبين من الناظرين الذين على أبصارهم الحجب الكثيفة التي تجعلهم يرون الطاعة بهذه الصورة، ولعل من آخر هؤلاء المجاذيب المجانين الذي استهووا خلائق لا يحصيهم إلا الله عز جل، ما وقع في القرن الماضي، أن أحد هؤلاء كان من قطاع الطرق، فكشف أمره ففر ولجأ إلى مغنية مشهورة في عهد الملك فاروق في مصر، فلجأ إلى مغنية مشهورة، وهو خائف في غاية الخوف، فجاء الناس يبحثون عنه ويطلبونه، فوضعت في يديه ورجليه الحديد، سلسلته بالحديد، والرجل صار يتصرف على أنه مجنون، فبدأت تضيف إليه كرامات وأنها ترى منه عجائب وغرائب مما يدل على ولايته لله -عز وجل-، وخفي هذا على الناس وصار يأتيه الصغير والكبير حتى الملك فاروق زاره وطلب منه الدعاء، إلى هذا الحد، فأين هذا من الولاية؟!

وآخر توفي قبل سنوات في بعض البلاد، تُنقل عنه خرافات وخزعبلات وأشياء أشبه ما تكون بتصرفات الحيوانات، يزعمون أنه مرض وذهب إلى مصر للعلاج، وعندما قرر الأطباء إجراء العملية قال لهم: أمهلوني إلى الغد، وفي ليلته أتاه النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلي بن أبي طالب وأبو ذر ومجموعة من

---

٣ - رواه النسائي في الكبرى (٣٦٢/٦)، برقم (١١٢٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٥/٦)، برقم (٨٩٩٧)، وصححه ابن حبان في صحيحه (٣٣٢/٢)، برقم (٥٧٣)، وقال محققه الأرنؤوط: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٠٢٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصحابة -رضي الله عنهم- فنظروا في حاله وعملوا له العملية، فقام في الصباح وليس به شيء، أُجريت له التحاليل والفحوصات والأشعة ولكنه قد زال عنه المرض، وغير ذلك من الخزعبلات.

روى ابن جرير عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- أنه قال لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة، فما بشرى الدنيا؟ قال: ((الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له، وهي جزء من أربع وأربعين جزءاً، أو سبعين جزءاً من النبوة))[٤].

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: يا رسول الله الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تلك عاجل بشرى المؤمن))[٥].

رواه مسلم.

وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، قال: ((الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة، فمن رأى ذلك فليخبر بها، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه، فلينفث عن يساره ثلاثاً وليكبر ولا يخبر بها أحدا))[٦]**. لم يخرجوه.**

وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ}[سورة فصلت(٣٠-٣٢)].

وفي حديث البراء -رضي الله تعالى عنه-: ((أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان، وربٍّ غير غضبان، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء))[٧].

وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى: {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [سورة الأنبياء(١٠٣)]، **وقال تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}**[سورة الحديد(١٢)].

---

٤ - رواه ابن جرير في تفسيره (١٣٢/١٥)، برقم (١٧٧٣٠)، وقال محققه الشيخ أحمد شاكر: "هذا إسناد ضعيف، لضعف موسى بن عبيدة، وهو إسناد منقطع أيضاً؛ لأن أيوب بن خالد لم يرو عن عبادة بن الصامت".

٥ - رواه مسلم برقم (٢٦٤٢)، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره.

٦ - رواه أحمد في المسند (٦٢١/١١)، برقم (٧٠٤٤)، وقال محققوه: صحيح لغيره.

٧ - رواه أحمد في المسند (٤٩٩/٣٠)، برقم (١٨٥٣٤)، من حديث البراء بن عازب -رضي الله عنه-، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٥/١)، برقم (٣٩٥)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز (١٥٨)، وفي صحيح الجامع برقم (١٦٧٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ} أي: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة {ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

البشرى في هذه الأحاديث الصحيحة فسرها النبي -صلى الله عليه وسلم- بالرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرَى له، والتفسير النبوي إذا صح فإنه لا يحتاج معه إلى غيره، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، لكن هذا المعنى لا ينفي أن تكون البشرى في الدنيا بما جاء في الحديث الآخر، وإن لم يكن تفسيراً للآية مما يحصل للإنسان من الذكر الجميل، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((تلك عاجل بشرى المؤمن))، فالله -عز وجل- قال: {لَهُمُ الْبُشْرَى} والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد يفسر الآية بمعنى يؤخذ من عموم اللفظ، ولا يعني ذلك حصر المعنى فيما ذكر، وإنما هو أحد المعاني الداخلة فيها، ولا ينفي بعضَ المعاني التي تحتملها الآية أو جاء السياق فيها، فالتفسير بأنها الرؤيا الصالحة لا ينفي أن يكون هذا ما يحصل للإنسان من الذكر الجميل، ولا ينفي قول من قال بأن الملائكة تبشره عند قبض روحه مثلاً، وما أخبر الله -عز وجل- في القرآن في قوله: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة البقرة(٢٢٣)]، بشارة حاصلة في هذا القرآن لأهل الإيمان بما أعد الله -عز وجل- لهم في دار كرامته، وما يكون لهم في هذه الدنيا من الرفعة والنصر، والظهور والغلبة، والتمكين، فكل هذا داخل في هذه البشرى، -والله تعالى أعلم-.

وقوله: {لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ}، أي: حكمُ الله -عز وجل- وقضاؤه لا يبدل، فالله -عز وجل- قضى ذلك لأهل الإيمان وقدّره فلا مبدل لكلماته، ولا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

قال المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه- في تفسير قوله تعالى: {وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} [سورة يونس(٦٥-٦٧)].

يقول تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: ولا يحزنك قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه فإن العزة لله جميعاً، أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين {هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} أي: السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم، ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئاً لا ضراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي يستريحون فيه من نَصَبهم وكلالهم وحركاتهم، {وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} أي: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}: {وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ} أي تكذيبك واتهامك بأنك ساحر وشاعر أو كذاب، أو غير ذلك مما يصدر عنهم من ألوان الإعراض والتكذيب والمكابرة، كما قال الله -عز وجل- في مواضع من كتابه: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} [سورة النمل(٧٠)] فنهاه عن الحزن عليهم، {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ} [سورة الكهف(٦)] أي: مُهلك نفسك {عَلَى ءاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} فهذا كله تسلية للنبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن الله -عز وجل- قدر ما قدر من الهدى والضلال عن علم وحكمة، وما على الأنبياء إلا البلاغ، وهكذا من جاء بعدهم من الدعاة إلى الله -تبارك وتعالى- إنما يبلغون الناس ويدعونهم وليس على أحد هداية الخلق، وإنما ذلك يختص بالله جل جلاله، وقوله هنا: {إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} هذا لا ينافي قوله: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [سورة المنافقون(٨)]، فالعزة التي تكون للرسول -صلى الله عليه وسلم- وللمؤمنين هي مستمدة من عزة الله -عز وجل-، فإنما يحصل لهم ذلك بإعزاز الله لهم، فالعزة لله جميعاً، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ} هذا أيضاً لا ينافي قوله -تبارك وتعالى- في الآيات الأخرى {قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءَكُمْ} [سورة الأعراف(١٩٥)] ونحو ذلك مما جاء في القرآن، فسماهم شركاء، وهنا نفى عنهم أن يكونوا شركاء، فالآيات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التي سماهم فيها شركاء، هذا باعتبار نظر هؤلاء الكفار، فهم نزلوها هذه المنزلة، والخطاب في القرآن يأتي كثيراً باعتبار نظر السامع ومراعاة لحاله، سواء كان يعتقد المخاطب، صحته أو لا يعتقد صحته، مثل قوله: {قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ}، أو قولهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [سورة الحجر(٦)] فهم لا يؤمنون أنه نزل عليه الذكر، فالحاصل أن هذا كثير في القرآن فبيّن حقيقتهم {وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ}، وقوله هنا: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا} النهار مبصراً: أي تبصرون فيه، ينجلي الظلام وينطلق الناس في معايشهم ومصالحهم، هذا هو المعنى، فأضاف الإبصار إليه، وذلك على طريقة العرب، فخاطبهم بما يعهدون من المخاطبة، وإن كان النهار في نفسه لا يبصر، وإنما الناس هم الذين يبصرون في النهار، ولكن العرب تعبّر بهذا كثيراً وتضيف الإبصار إلى النهار فعبر بمعهودهم.

{قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [سورة يونس(٦٨-٧٠)].

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ولداً {سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ} أي: تقدس عن ذلك، هو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه، {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} أي: فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له، عبد له؟، {إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا} أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان، {أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد، كقوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [سورة مريم(٨٨-٩٥)] ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً {ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [سورة لقمان(٢٤)] كما قال تعالى هاهنا: {مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا} أي: مدة قريبة، {ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ} أي: يوم القيامة {ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ} أي: الموجع المؤلم، {بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} أي: بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادعوا من الإفك والزور.

هنا في قوله: {قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ} وجه هذا الرد باعتبار أن اتخاذ الولد يكون من حاجة، فالإنسان يحتاج إلى الولد ليكون عاضداً له، فهو مفتقر إليه، أمّا الغَنِيُّ الغنَى الكامل المطلق فإنه لا يحتاج إلى الولد، ثم إن قوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} يعني: أن الكل عبيده ومماليكه، والولد بخلاف ذلك، ولهذا فإن الإنسان لو اشترى ولده المملوك فإنه يعتق عليه بهذا الشراء، فالولد له حكم الأب، ولو كان لله ولد فإنه سيكون إلهاً، والله -عز وجل- يقول: كل من في السماوات والأرض فهم عبيده ومماليكه، هذا وجه الرد، هذا هو المقصود بهذا الجواب، والله تعالى أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ} [سورة يونس(٧١-٧٣)].

يقول تعالى لنبيه -صلوات الله وسلامه عليه- {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ} أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك {نَبَأَ نُوحٍ} أي: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم؛ ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك، {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ} أي: عظُم عليكم، {مَقَامِي} أي: فيكم بين أظهركم، {وَتَذْكِيرِي} إياكم {بِآيَاتِ اللَّهِ}، أي: بحججه وبراهينه.

قال الحافظ -رحمه الله- في قوله -تبارك وتعالى-: {مَقَامِي}: "**أي فيكم وبين أظهركم**"، المَقام بالفتح هو موضع الإقامة، وبالضم المُقام بمعنى الإقامة، إقامتي، {إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي} يعني: موضع الإقامة، وبالضم بمعنى الإقامة، ويحتمل أن يكون المراد أيضاً النفس؛ لأن ذلك يعبر به عنها، تقول: مقام فلان إلى مقامكم، ونحو هذا، ويعبر به أحياناً عن المكث -والله أعلم-، وهذه المعاني بينها ملازمة، وإنما شق عليهم ذلك؛ لقيامه عليهم بالدعوة إلى التوحيد، فكبُر عليهم ما يدعوهم إليه.

{فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ} أي: فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا، {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ} أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم، الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن.

قوله: {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ} قال الحافظ –رحمه الله-: "فاجتمعوا"، وأجمعوا بمعنى اعتزموا، تقول: أجمع أمره يعني عزم، أجمع أمره على كذا، بمعنى عزم عليه، {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ} قال: الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن.

قوله: {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ}أي: اعزموا عليه، {وَشُرَكَاءَكُمْ} نصب بفعل مقدر محذوف يصلح لمثل هذا؛ لأن هؤلاء الشركاء لا يحصل منهم العزم، فيكون {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ} وادعوا شركاءكم، ويدل على هذا المعنى قراءة أُبَيّ، وهي قراءة ليست متواترة، "فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم" وذكرنا من قبل أن القراءة الأحادية يستفاد منها ثلاث فوائد، من هذه الفوائد: أنها تفسر القراءة المتواترة، وهذا كثير في القرآن وفي كلام العرب، فالله -عز وجل- يقول مثلاً في سورة الحشر: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} [سورة الحشر(٩)]، {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} تبوءوا بمعنى نزلوا واستوطنوا، يعني سكنوا الدار، من اتخاذ المباءة {تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ} الإيمان لا يُسكن، فعبر عنهما بفعل واحد وهو التبوُّء، فيمكن أن يكون {تَبَوَّءُوا الدَّارَ} يعني سكنوا الدار واعتقدوا الإيمان أو: ولزموا الإيمان، كقول الشاعر:

ورأيت زوجك في الوغى* متقلداً سيفاً ورمحاً.**

والتقلد إنما يكون للسيف، وهي طريقة معروفة عند العرب، يعني يجعلون للسيف حمائل ويضعونه في الرقبة ويتقلدونه، والعجم يربطونه بحزام في جانبهم كما هو معروف، والرمح يحمل باليد، فقال: متقلداً سيفاً ورمحاً،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والتقدير متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً، على كل حال {وَشُرَكَاءَكُمْ} أي وادعوا شركاءكم، ويدعونهم تبكيتاً لهؤلاء العابدين.

{ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً} أي: لا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افصلوا حالكم معي.

قال الحافظ -رحمه الله-: "**لا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً**"، ويحتمل أن يكون المعنى: أي ظاهراً منكشفاً، {ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً} فالشيء الذي يغم غيره يكون مغطياً له، ولهذا قيل الغم لاغتمام القلب، كأنه يغطيه، فلا يكون في الإنسان، فلا يتفكر بطريقة صحيحة، لكثرة ما يغطي قلبه من الغم، ولهذا قيل: الغمام -لهذا المعنى- التغطية، ((كأنهما غمامتان أو غيايتان))[1] فكل ما غيب الإنسان وغطاه فهو غيابة وغياية، ومنه غيابة الجب، فالغمة من غمه إذا غطاه، يعني {لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً} أي: فليكن ظاهراً منكشفاً.

فإن كنتم تزعمون أنكم محقون {ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ} أي: ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء.

هنا ما فسر قولَه -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ} ما معنى اقضوا إلي؟ اقضوا إلي يمكن أن يكون فسر القضاء هنا بمعنى الفراغ، يعني افرغوا إلي، ويمكن أن يكون بمعنى امضوا إلي.

فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: {إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم} [سورة هود(٥٤-٥٦)] الآية.

وقوله: {فَإِن تَوَلَّيْتُمْ} أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة، {فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ} أي: لم أطلب على نصحي إياكم شيئاً {إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} أي: وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله -عز وجل-، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم، كما قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [سورة المائدة(٤٨)]، قال ابن عباس: سبيلاً وسنة، فهذا نوح يقول: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [سورة البقرة(١٣١-١٣٢)]، وقال يوسف: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}[سورة يوسف(١٠١)]، وقال موسى: {يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ} [سورة يونس(٨٤)]، وقال السحرة: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}[سورة الأعراف(١٢٦)]، وقالت بلقيس: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[سورة النمل(٤٤)]، وقال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ}[سورة المائدة(٤٤)]، وقال تعالى: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ

---

١ - هو جزء من حديث رواه مسلم عن أبي أمامة الباهلي -رضي الله عنه- ولفظه: ((اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة فإنّ أخْذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة))، برقم (٨٠٤)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}[سورة المائدة(١١١)]، وقال خاتم الرسل وسيد البشر -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [سورة الأنعام(١٦٢-١٦٣)] أي: من هذه الأمة، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: ((نحن معشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد))[٢] أي: وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: ((أولاد علات)) وهم الأخوة من أمهات شتى والأب واحد، وقوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ} [سورة يونس(٧٣)] أي: على دينه {فِي الْفُلْكِ} وهي السفينة، {وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ} أي: في الأرض، {وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ} أي: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين.

وقوله: {وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ} أي: يخلفون أولئك الذين أهلكهم الله -عز وجل- وأفناهم من الكفار.

{ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ} [سورة يونس(٧٤)].

يقول تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به، {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ} أي: ما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كقوله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ}[سورة الأنعام(١١٠)] الآية، وقوله: {كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ} أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ويختم على قلوبهم حتى يروا العذاب الأليم.

التفسير الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا ظاهر، وهو أحد المعاني التي تحتملها الآية، ولا شك أنه المراد في بعض المواضع في القرآن، بمعنى أن قوله -تبارك وتعالى-: {فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جعل الباء للسببية، لماذا لم يؤمنوا؟ بسبب تكذيبهم المتقدم، فالتكذيب المتقدم صار سبباً لطمس القلوب، وجاء بآيات في هذا المعنى، كما قال الله -عز وجل-: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ} [سورة الأنعام(١١٠)]، فيكون التكذيب المتقدم سبباً لصرف الإنسان عن الحق، والطبع على قلبه، فلا ينتفع بما يسمع، بينما ابن جرير -رحمه الله- لم يفسرها بهذا المعنى وإنما فسرها بمعنى آخر، فعند ابن جرير {فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ} بما كذبوا به {كَذَّبُواْ} مَن الذين كذبوا عند ابن جرير؟ الذين كذبوا هم الأمم المتقدمة، يعني يقول: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ} من بعد نوح -عليه الصلاة والسلام- {فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ} بما كذب به مَن قبلهم، يعني أن الكفر يتكرر ويتجدد في كل أمة، كلما جاء أمةً رسولٌ كذبوه، فأولئك الأمم كذبوا برسالة نبيهم، وقالوا: {سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}[سورة الذاريات(٥٢)]، وكذبوا بما يدعوهم إليه من وحدانية الله -عز وجل-، فيقول هؤلاء الذين أرسلوا بعد نوح -عليه الصلاة والسلام- إلى أممهم: بقيت تلك الأمم

---

٢ - رواه مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- بلفظ قال فيه: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أنا أولى الناس بابن مريم، الأنبياء أولاد علات وليس بيني وبينه نبي))، برقم (٢٣٦٥)، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الكفر، ولم يؤمنوا، فما كانوا ليؤمنوا بما كذب به من قبلهم، وهذا فيه بعد، والله تعالى أعلم، والآية تحتمل معنى ثالثاً: وهو أن هؤلاء لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل أن تأتيهم الرسل؛ لأنهم كانوا أمة واحدة على الإيمان فاختلفوا فتفرقوا فبعث الله النبيين، فهؤلاء الذين جاءهم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كما قال الله: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [سورة البقرة(٢١٣)]، جاءوهم يدعونهم إلى الله -عز وجل-، إلى توحيده وعبادته، فلما جاءوهم لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل، بماذا كانوا يكذبون قبل بعث نبيهم؟ كانوا يكذبون بالبعث مثلاً، كانوا يعبدون مع الله غيره، ينكرون التوحيد، فلما جاء الرسل ما حصل لهم الإيمان بهذه الأمور التي كذبوا بها، {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ} فهذا معنى أقرب من المعنى الذي ذكره ابن جرير -رحمه الله-، فصارت المعاني التي تحتملها الآية ثلاثة.

والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم وذلك من بعد نوح -عليه السلام- فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم -عليه السلام- على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً -عليه السلام-، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وقال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ} [سورة الإسراء(١٧)] الآية، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال، فما ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟.

المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير توجد في الآية قرينةٌ تشهد له وهي قوله: {كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ} يعني: باعتبار أن "الباء" سببية {فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ} بسبب تكذيبهم {مِن قَبْلُ} بمعنى أن الله طبع على قلوبهم بسبب ذلك، ولهذا قال: {كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ} والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يونس (٧٥ – ٧٨)].

يقول تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا} **من بعد تلك الرسل** {مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ} **أي: قومه،** {بِآيَاتِنَا}: **أي حججنا وبراهيننا،** {بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ} **أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له وكانوا قوماً مجرمين،** {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ} **كأنهم -قبحهم الله- أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى:** {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}[سورة النمل:١٤] **الآية، قال لهم موسى منكراً عليهم:** {أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا} **أي: تثنينا** {عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} **أي: الدين الذي كانوا عليه،** {وَتَكُونَ لَكُمَا} **أي: لك ولهارون،** {الْكِبْرِيَاءُ} **أي: العظمة، والرياسة في الأرض** {وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا} قال هذا بعد أن قال: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ} [سورة يونس(٧٤)]، ويدخل من بين هؤلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- موسى وهارون، ولكن الله -تبارك وتعالى- خصهما بالذكر لمنزلتهما وشرفهما وعظيم مقامهما ولشأن دعوتهما، حيث بعثهما الله -تبارك وتعالى- إلى فرعون.

وقال الله -عز وجل-: {قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا} الاستفهام في الآية: {أَسِحْرٌ هَذَا} من أهل العلم من قال بأنه من قوم موسى -صلى الله عليه وسلم- لما جاءهم الحق، فرد عليهم موسى -صلى الله عليه وسلم-: {أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا}، ثم هل كانوا يستفهمون عندما قالوا: {أَسِحْرٌ هَذَا}، أو أنهم قالوا: {هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}؟ [سورة النمل(١٣)].

من أهل العلم من قال: إن هذه هي مقالتهم، كما قال الأخفش: قالوا: {أَسِحْرٌ هَذَا}، وهذا فيه بعد، وبعض أهل العلم يقول: هناك مقدر تقديره: أتقولون للحق لما جاءكم سحر؟ فلا تقولوا ذلك، فيكون قوله: {أَسِحْرٌ هَذَا} من كلام موسى -صلى الله عليه وسلم-، يرد عليهم، أتقولون للحق لما جاءكم سحر، {أَسِحْرٌ هَذَا} ما تعقلون؟! ما ترون؟! ما تميزون؟! إذاً قولهم كما تدل الآية التي قبلها أنهم قالوا: هو سحر، فقال: أتقولون للحق لما جاءكم سحر؟، ومن أهل العلم من قدره بغير هذا، فقال: {أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ} ما تقولون؟، {أَسِحْرٌ هَذَا}، ومن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أهل العلم من خرج من هذا السؤال ففسر القول بغير معناه المتبادر، تعرفون القول: هو الكلام سواء كان مفيداً أو غير مفيد، كما قال ابن مالك:

والقول عم...

يعرّف النحاة الكلام بأنه: اللفظ المركب المفيد فائدة يحسن السكوت عليها، فالقول أعم منه؛ لأنه يشمل المفيد وغير المفيد، ويطلق القول في لغة العرب على الحركة، تقول: ثم قال بيده هكذا، قال بيده: يعني حركها، قال بعينه: أي: حركها، ومن أهل العلم من فسر القول بغير معناه المعروف المتبادر وإنما فسره بالعيب {أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا} يعني أتعيبون الحق، فهذا يمكن أن يكون من قبيل التفسير على المعنى، وليس من قبيل التفسير على اللفظ، والذي ألجأهم لهذا هو هذا السؤال {أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ} أتعيبون الحق لما جاءكم بقولكم: إنه سحر؟، {أَسِحْرٌ هَذَا} فعلى هذا: كل هذه الأقوال -ما عدا قول الأخفش- مفادها أن {أَسِحْرٌ هَذَا} من كلام موسى -صلى الله عليه وسلم-، وهذا يفهم من السياق.

وقوله: {أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ} [سورة يونس(٧٧)] كما قال الله -عز وجل-: {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [سورة طه(٦٩)]، وقوله: {أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا} اللفت، تقول: لفتَه عن كذا بمعنى صرفَه عنه، وقال هنا أيضاً: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} خاطبوا موسى -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أنه المقدم، وهو الذي أرسل إليهم، {أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا}، {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ} والخطاب في الجملة الثانية موجه إلى موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-، {وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} فالمرسَل إليهم هو موسى -صلى الله عليه وسلم-، قالوا: {أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا}، وهارون -عليه الصلاة والسلام- كان عضداً له، فوجهوا الخطاب لموسى -صلى الله عليه وسلم-، ثم قالوا: {وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ} بمعنى إذا حصلت سياستهم بالدين بطلت سياسات فرعون، وسار لهما من الطاعة والانقياد والقبول عند الناس ما يكون لهم فيه علو المنزلة والظهور، فقالوا: {وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ}.

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [سورة يونس(٧٩ – ٨٢)].

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى -عليه السلام- في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك وفي هذه السورة، وفي سورة طه وفي الشعراء، وذلك أن فرعون لعنه الله أراد أن يبهرج على الناس ويعارض ما جاء به موسى -عليه السلام- من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعوذين، فانعكس عليه النظام ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام {وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [سورة الأعراف(١٢٠- ١٢٢)] ، فظن فرعون أنه سينتصر بالسُّحار على رسول الله عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار.

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ} وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وُعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا} [سورة طه(٦٥- ٦٦)]، **فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم، ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [سورة طه(٦٧ – ٦٩)] **فعند ذلك قال موسى لما ألقوا**: {مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}.

قوله: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} في قراءة أخرى متواترة هي قراءة حمزة والكسائي، {ائْتُونِي بِكُلِّ سَحَّارٍ} فهذه القراءة تفسر قراءة الجمهور {سَاحِرٍ} فالسَّحار هو كثير السحر، صيغة مبالغة، العليم بالسحر، المتمهر المتمرس في السحر {بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ}، وقوله: {فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ} ما جئتم، "ما" هذه موصولة بمعنى الذي، أي الذي جئتم به هو السحر، ثم قال: {وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} يحق الله الحق بكلماته، والكلمات: من أهل العلم من فسرها بالكلمات الشرعية، أي: الكتب التي أنزلها الله -عز وجل- على أنبيائه ورسله مثل التوراة أنزلها على موسى يُحق بها الحق، يبيّن فيها الهدى من الضلال، والحق من الباطل هذا معنى تحتمله الآية، فالكلمات تصدق على الكلمات الشرعية، ولا شك أن الله يحق بها الحق، يفصل فيها بين الحق والباطل ولهذا سمى القرآن بالفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمات: الكلمات الكونية، {وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} يعني الكونية، ومن ذلك ما حصل من عصا موسى -صلى الله عليه وسلم- {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}، فهذا من كلماته الكونية، يعني ما حصل من أن العصا تحولت إلى حية، وأنها صارت تلقف ما يأفكون {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[سورة الأعراف(١١٨)]، فهذا كله بتقدير الله -عز وجل- وقضائه فخاب هؤلاء، وغلبوا بأمر الله -تبارك وتعالى-، وظهر الحق للناس، ويمكن أن يراد بالكلمات المعنيان: يحق الله الحق بكلماته الشرعية، وبكلماته الكونية، ويمكن أن تكون مراده في الحديث: ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق))[1]، يمكن أن تكون الاستعاذة بكلماته الشرعية، أي القرآن، ويمكن أن يراد بذلك الكلمات الكونية، {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [سورة النحل(٤٠)] والأرجح أن المراد بها في الحديث الكلمات الكونية؛ لأنه جاء تفسير هذا أيضاً: ((التي لا يجاوزها بر ولا فاجر))[2]، ويمكن حمل ذلك على الآيات الشرعية، ولكن حمله على الآيات الكونية أولى، فالله لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وهو المناسب في الاستعاذة أن الإنسان يريد بهذه الاستعاذة أن يحفظه الله، وأن يحميه من المخاوف فيكون ذلك بالكلمات الكونية، وتعليق الحافظ ابن كثير -رحمه الله- على قوله -تبارك

---

١ - رواه مسلم برقم (٢٧٠٨)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

٢ - رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥٠/٥)، برقم (٢٣٥٩٩)، كتاب الطب، في الرجل يفرغ من الشيء، تحقيق: كمال يوسف الحوت.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتعالى-: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا} يقول: "فأراد موسى -صلى الله عليه وسلم- أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم"، الذي يعلق بأذهان الناس هو المشهد الأخير، قد يؤتى بشيء فيه آية وبرهان في البداية ثم تأتي بعده أشياء تشغل الناس وتشوش على أذهان هؤلاء، ويكون آخر ما يصادف أذهانهم الباطل، فالأنسب أن يكون الحق هو آخر ما يشاهدون، فألقى هؤلاء السحرة كل ما عندهم واستنفذوا قدرهم وطاقاتهم، ثم ألقى موسى -عليه الصلاة والسلام- العصا فإذا هي حية عظيمة تلقف هذه الأشياء جميعاً، فكان الحق هو آخر ما حصل في هذا الموقف.

{فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} [سورة يونس(٨٣)].

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى -عليه السلام- مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات- إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم الشباب على وجَلٍ وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون -لعنه الله- كان جباراً عنيداً، مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة، تخاف رعيته منه خوفاً شديداً، قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ} قال: فإن الذرية التي آمنت بموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه، وأما بنو إسرائيل فالمعروف أنهم كلهم آمنوا بموسى -عليه السلام- واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه، ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر، فلم يُجدِ عنه شيئاً، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، {قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [سورة الأعراف(١٢٩)].

قوله -تبارك وتعالى-: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ} الضمير –الهاء- في {قَوْمِهِ} هل يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام- أي: ذرية من قوم موسى من الإسرائيليين، أو يرجع إلى فرعون؟، فإذا قلنا: إن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور كما هو الأصل، فإنه يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهذا خلاف قول ابن كثير -رحمه الله-، {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ}، لكن يشكل هذا، باعتبار أن الإسرائيليين كما قال ابن كثير -رحمه الله- آمنوا بموسى وكانوا يعرفون صفته وينتظرون أصلاً مجيئه، ففرحوا به وسروا بهذا؛ لأن خلاصهم سيكون على يده، فالشاهد أن هذا الملحظ هو الذي جعل بعض أهل العلم يقول: إن الضمير يرجع إلى فرعون، وإذا قلنا: إن الضمير يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم- {إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ} فإن هذا قد يفهم منه أن الذين آمنوا بموسى -صلى الله عليه وسلم- هم قلة من الإسرائيليين، {مِّن قَوْمِهِ} من قوم موسى -عليه الصلاة والسلام-، ولم يؤمنوا كلهم، ويمكن أن يُخرج من هذا الإشكال بما ذكره بعض أهل العلم أن الضمير يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام-، وأن الإسرائيليين آمنوا به، {إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ} كما قال بعض السلف: إن الذين آمنوا به هؤلاء الذرية المقصود بهم من أدركوا نبوته، وبعثته؛

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لأن الإسرائيليين كان فرعون يضطهدهم، وكانوا ينتظرون مجيء موسى -صلى الله عليه وسلم-، فهلك منهم كثير قبل مجيء موسى -عليه الصلاة والسلام-، مات الأجداد والآباء وأدرك بعثَ موسى -صلى الله عليه وسلم- ذريةٌ من هؤلاء القوم {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ} فعلى هذا الأساس: الإسرائيليون جميعاً آمنوا به، والضمير يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم-، فما أدركه المتقدمون منهم مع طول انتظارهم، وإنما أدركه المتأخرون الأحفاد الذرية، وهذا لا يخلو من إشكال؛ لأن الله قال: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ} أولئك الذين ما أدركوه لم يطالَبوا باتباعه أصلاً، لكنهم كانوا يؤمنون بمجي نبي بالصفة التي عرفوها، فهل في مثل هذا يقال: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ} ولهذا قال بعض أهل العلم: إن الضمير يرجع إلى فرعون، {إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ} وبعضهم فسر الذرية بالقلة، وبعضهم فسرها: بأنهم من أبناء هؤلاء الفراعنة، آمنوا به وهم في حال من الخوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم، وقوله: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ}، ملئهم هنا جاءت بصيغة الجمع، ولم يقل: وملئه أن يفتنهم، {وَمَلَئِهِمْ} فالهاء ضمير يرجع إلى الإسرائيليين، فالذين آمنوا هم الإسرائيليون، وهذا بعيد، إلا إذا قلنا: إن الذين آمنوا من الإسرائيليين، وأن كبراءهم لم يؤمنوا؛ بسبب خوفهم من فرعون من جهة، وخوفهم من وجهائهم وكبرائهم من جهة أخرى، وهذا فيه بعد، وقيل لهم ملأ؛ لأنهم يملئون صدور المجالس، و يتمالئون على الأمر، والراجح أن المقصود بهم الكبراء والناس الذين لهم شأن، أهل الوجاهة وأهل الحل والعقد، وهم الذين يذكرهم الله -عز وجل- مع ذكر فرعون في آيات كثيرة، كقوله: {وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى} [سورة الأعراف(١٢٧)]، فمن أهل العلم من فسر فرعون بالفراعنة، فقال: إنه عبر بفرعون عن قومه، فقال: المقصود: {عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ} يعني من آل فرعون، فعبر به عن قومه، وملئهم وكبرائهم وأشرافهم، وهذا فيه بعد، -والله أعلم-، وبعض أهل العلم يقول: إن المقصود فرعون وملأه، فأتى بضمير الجمع؛ لأنه كان جباراً ومتعالياً في الأرض، والعرب تأتي بهذا على سبيل التعظيم، فالمعظم نفسه يقول: فعلنا وقلنا، {وَمَلَئِهِمْ} يعني وملأ فرعون، كذا قال بعض أهل العلم، ويحتمل أن يكون الضمير يرجع إلى الذرية، {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ} أي ملأ الذرية، فيكون المعنى أن الذين آمنوا هم من قوم فرعون، فهم على حال من الخوف من فرعون وملئهم، وهذا أقرب هذه الأقوال، {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ} فهم على خوف من فرعون ومن ملئهم الكبراء من الفراعنة الوجهاء؛ لأنهم كانوا في غاية الكفر مثل فرعون، هم الذين يقولون لفرعون: {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} كأن فرعون ناقصٌ في الشر، فهم يحثونه ويغرونه بموسى -عليه الصلاة والسلام.

ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [سورة يونس(٨٤-٨٦)].

هذه الآيات لا تدل بحال على أن الذين آمنوا بموسى -صلى الله عليه وسلم- من الإسرائيليين قلة، وذرية من قومه بمعنى قلة أو الشبان منهم، فالخطاب للإسرائيليين، ولهذا لما خرج بهم موسى -صلى الله عليه وسلم-

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من مصر، ما خرج بفئة قليلة، بل خرج بالإسرائيليين برمتهم: النساء والرجال والكبار والصغار، كلهم أخرجهم من مصر، فلم يبق لهم بقية في مصر كما هو معروف في التاريخ.

يقول تعالى مخبراً عن موسى -عليه السلام- أنه قال لبني إسرائيل: {يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ} أي: فإن الله كافٍ من توكل عليه، {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [سورة الزمر(٣٦)]، **{وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}** [سورة الطلاق(٣)]، **وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل، كقوله تعالى: {فاعبده وتوكل عليه}، {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا}** [سورة الملك(٢٩)]، **{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}** [سورة المزمل(٩)]، **وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة {إياك نعبد وإياك نستعين}، وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: {عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} أي: لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سُلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك، هكذا روي عن أبي مجلز وأبي الضحى.**

وروى عبد الرزاق عن مجاهد: {رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} لا تسلطهم علينا فيفتنونا، وقوله: {وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ} أي: خلصنا برحمة منك وإحسان، {مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} أي: الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

قوله -تبارك وتعالى-: **{رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** قال بعض السلف: لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سُلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيُفتنوا بذلك، وقال مجاهد: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، هذان قولان معروفان للسلف، والفتنة مصدر، والمصدر قد يراد به المفعول وقد يراد به معنى الفاعل، **{رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً}** أي: لا تجعلنا فاتنين، **{رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا}** [سورة الممتحنة(٥)] أي: لا تجعلنا فاتنين للذين كفروا، وهو القول الأول الذي عزاه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- إلى أبي مجلز وأبي الضحى، **{لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً}** أي: لا تجعلنا فاتنين للذين كفروا، قال: لا تسلطهم علينا فيُفتنوا بذلك، ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحق ما صاروا بهذه المثابة، فصرنا بهذا الاعتبار فتنة لهم يزهدون بما عندنا من الحق بسبب هذا الذي وقع من تسلطهم علينا وضعفنا وعجزنا، فيكون ذلك صارفاً لهم عن الهدى، ويدخل في هذا أيضاً **{لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً}** أي: فاتنين بسوء صنيعنا، وتصرفنا، بما يصدر منا من الأفعال التي تكون صادّة للناس عن سبيل الله، ومنفرة عن الحق، والمعنى الثاني **{لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً}** فتنة: مصدر بمعنى المفعول، أي: لا تجعلنا مفتونين، فلا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا، والمصدر تارة يراد به هذا، وتارة يراد به هذا، والقرآن يعبر بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وكل واحد من المعنيين حق، فهذا يشمل هذا وهذا، والمعنى الأول متضمن المعنى الثاني، يعني لا تسلطهم علينا فيُفتنوا بذلك ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لما صاروا بهذه المثابة، هم حينما يسلطون عليهم تحصل لهم أيضاً فتنة.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة يونس(٨٧)].

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منه، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون -عليهما السلام- أن يتبوءا، أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبوأ هو المكان الذي يلازمه الإنسان، كقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فليتبوأ مقعده من النار))[٣] أي: فليلزم مقعده من النار، وذلك من اتخاذ المباءة، وهو المكان الذي يلازمه الإنسان، أو يرجع إليه ويئول إليه، ويصير إليه بعد انتشاره في حاجاته ومصالحه وشئونه ويرجع إليه، {بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ} [سورة الأنفال(١٦)]، يعني: رجع بغضب من الله.

وقوله تعالى: {وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى -عليه السلام- لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة.

وقال مجاهد: {وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سراً، وكذا قال قتادة والضحاك.

لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة ويصلون فيها سراً، {وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} أي: يمكن أن تكون إلى جهة القبلة، أو تكون مساجد، فهذا كله يرجع إلى شيء واحد، يعني صلوا في بيوتكم واتخذوها مساجد، اجعلوا بيوتكم قبلة، ولذلك قال بعدها: {وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ}، فمن أهل العلم من فسر البيوت بالمساجد، ولكن لا يخلوا من إشكال، اجعلوا مساجدكم قبلة، هذا أمر قد يكون معلوماً بالنسبة إليهم، وأضاف البيوت إليهم أيضاً في الآية، ومثل هذه الإضافة المتبادر منها أن المقصود: البيوت التي تختص بهم، {وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً}، وبعضهم فسر القبلة أي: متقابلة، بمعنى اجعلوها متقابلة، ويحتمل أن يكون المراد بهذا جهة القبلة، يعني من ناحية يسهل عليهم فيها الخروج إذا جاءت لحظة الخروج من مصر، يعني ما يكونون متفرقين يسكنون في أحياء ونواحي في مصر يصعب جمعهم فيها، أمرهم أن يتكتلوا في مكان معين في ناحية من مصر يسهل فيها الخروج منها إذا أُمروا بذلك، والأقرب -والله أعلم- أن المقصود {وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} أي: مساجد تصلون فيها تتعبدون لله -تبارك وتعالى- فيها، وهذا لا ينافي قول من قال: إنها إلى جهة القبلة، يستقبلون القبلة ولا تجعلوها مساجد، فهم سيستقبلون القبلة، بصرف النظر طبعاً عن القبلة هنا ما المراد بها، فمن أهل العلم من يقول: إن الكعبة هي المكان الذي يستقبله الأنبياء جميعاً، وبعضهم قال: من آدم -صلى الله عليه وسلم- فمن بعده يستقبلون الكعبة، وظاهر كلام ابن القيم -رحمه الله-: أن جميع الأنبياء كانوا يستقبلون الكعبة، وتكلم على استقبال النصارى للمشرق وأصل هذا، واستقبال اليهود للصخرة، وأن اليهود كانوا ينقلون معهم التابوت في حروبهم ونحو هذا، فيستقبلونه في صلاتهم، وكان يوضع في مكان عند الصخرة أو على الصخرة، فكانوا يستقبلونه ثم بعد ذلك لما انتهى التابوت، صاروا يستقبلون المكان الذي كانوا يضعونه فيه، فابن القيم -رحمه الله- يرى أن هذه القبلة محرفة، يعني استقبال النصارى للمشرق، واستقبال اليهود للصخرة مثلاً، -فالله تعالى أعلم-.

---

٣ - رواه البخاري برقم (١٠٧)، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومسلم برقم (٢)، كتاب الإيمان، باب تغليظ الكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [(٨٨-٨٩) سورة يونس].

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى -عليه السلام- على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق، واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلماً وعلواً وتكبراً وعتواً، قال موسى -عليه السلام-: {رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً} أي: من أثاث الدنيا ومتاعها، {وَأَمْوَالاً} أي: جزيلة كثيرة، {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ} بفتح الياء، أي أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم، استدراجاً منك لهم، كقوله تعالى: {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} وقرأ آخرون {لِيُضلوا} بضم الياء، أي ليفتتن بما أعطيته من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم، {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد: أي أهلكها. وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقوله: {وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أي اطبع عليها {فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} وهذه الدعوة كانت من موسى -عليه السلام- غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبيّن له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح -عليه السلام- فقال: {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} [(٢٦-٢٧) سورة نوح] **ولهذا استجاب الله تعالى لموسى -عليه السلام- فيهم هذه الدعوة التي أمّن عليها أخوه هارون -عليه السلام- فقال تعالى: {قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا} أي: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون، وقال تعالى: {قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا} الآية، أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري، قال ابن جريج عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَاسْتَقِيمَا} فامضيا لأمري، وهي الاستقامة.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [(٨٨) سورة يونس] الدعاء في هذه الآية توجه به موسى -عليه الصلاة والسلام- إلى ربه -تبارك وتعالى- ثم قال الله -تبارك وتعالى- بعدها: {قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا} [(٨٩) سورة يونس]، وهنا قد يرد إشكال وهو أن أول الآية كان الدعاء من موسى -عليه السلام- على سبيل الإفراد، ثم كانت إجابة الله -عز وجل- بالتثنية، وما ذكره الحافظ ابن كثير هو جواب على هذا الإشكال، فقال -رحمه الله-: "**ولهذا استجاب الله تعالى**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لموسى -عليه السلام- فيهم هذه الدعوة التي أمّن عليها أخوه هارون -عليه السلام- فقال تعالى: {قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا}".

وقوله –تبارك وتعالى-: {رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً} الزينة: كل ما يتزين به مما هو زائد على الأصل من زينة الأثاث والثياب والمراكب والسلاح، والقصور، وغير ذلك.

قوله: {رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ} [(٨٨) سورة يونس] قرأ الكوفيون بالضم {لِيُضِلُّواْ}، وقرأ الباقون بالفتح {لِيَضِلُّواْ}، فيستعينون بالزينة والأموال على الإضلال فيكون عندهم من أسباب القوة والتمكين ما لا يكون عند غيرهم ممن هو فاقد لهذه الأشياء، ثم يحصل بسبب ذلك ما يحصل من افتتان الكثيرين الذين لا يرون ولا يعرفون إلاَّ المباهج والمظاهر الدنيوية.

والناس أكثرهم فأهل مظاهر*** تبدوا لهم ليسوا بأهل معان

فهم القصور وبالقشور قوامهم*** واللب حظ خلاصة الإنسان

واللام في قوله: {لِيَضِلُّواْ} هي لام الصيرورة ولام العاقبة، كقوله –تبارك وتعالى-: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} [(٨) سورة القصص]، ويكون المعنى: أن هذه الأموال التي أعطاهم الله -عز وجل- إياها نتج عنها في آخر الأمر الضلال والإضلال، وهذا الذي قاله سيبويه والخليل بن أحمد.

وقال بعض أهل العلم: إنها لام كي، بمعنى أنها للتعليل، أي: {آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً} لكي يَضلوا عن سبيلك، فأعطاهم الله ذلك استدراجاً لهم، كما قال الله -عز وجل-: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [(٥٥-٥٦) سورة المؤمنون] يعني أننا نستدرجهم من أجل أن يموتوا على كفرهم وضلالهم.

قال: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ} [(٨٨) سورة يونس] الطمس هو إهلاك الأموال، وبعضهم فسر الطمس بإذهاب الصورة، كقوله –عز وجل-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا} [(٤٧) سورة النساء]، وهذا قول الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس: "**جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت**" يعني الدينار المنقوش من ذهب تحول وصار حجراً، وهذا القول يحتاج إلى دليل.

قال –عز وجل-: {وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [(٨٨) سورة يونس]، أي: اربط على قلوبهم فلا يصل إليها الهدى ولا الموعظة والتذكير، وهنا يرد إشكال، وهو أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بعثوا لهداية الناس فكيف دعا موسى –عليه السلام- على قومه بأن يربط على قلوبهم فلا يدخل إليها الهدى؟

والجواب عند بعض أهل العلم أن الله أعلم موسى –عليه السلام- أن هؤلاء لن يؤمنوا، فدعا عليهم بأن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم، كما أعلم نوحاً -عليه الصلاة والسلام- بعدم إمكانية إيمان قومه، فقال: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [(٣٦) سورة هود]، فدعا عليهم نوح فقال: {رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} [(٢٦-٢٧) سورة نوح].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا الجواب قد لا يخلو من مراجعة وإشكال، وهو أنه إذا كان الله أخبر موسى بأن قومه لن يؤمنوا، فلماذا دعا عليهم بأن يربط على قلوبهم؟.

وقوله: {فَلاَ يُؤْمِنُواْ} بعض أهل العلم كالمبرِّد والزجَّاج يرى أن هذه الآية تعود إلى قوله: {لِيُضِلُّواْ}، أي: آتيتهم أموالهم ليضلوا، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

وقال الكسائي والفراء: قوله: {فَلاَ يُؤْمِنُواْ} دعاء عليهم بعدم الإيمان.

وقال بعضهم: إن قوله: {فَلاَ يُؤْمِنُواْ} جواب الأمر في قوله: {اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ} [(٨٨) سورة يونس]، يعني: يكون كأنه نتيجة لهذا الطمس، وهذا قول له وجه ظاهر، اطمس على الأموال واشدد على القلوب فلا يؤمنوا، يعني من الربط على القلوب الختم عليها والطبع عليها بحيث لا يحصل لهم الإيمان حتى يروا العذاب، اشدد عليها واطبع عليها طبعاً لا يحصل لهم معه الإيمان إلا برؤية العذاب، وهذه الآية تحتمل هذه الأوجه جميعاً، والله تعالى أعلم.

وهذه الآية يستفاد منها جواز الدعاء على الكافرين وأعداء الله –عز وجل- وقد دعا بعض الأنبياء على أقوامهم.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} قال ابن كثير –رحمه الله-: "**أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما**"، ونقل عن ابن عباس: {فَاسْتَقِيمَا}، أي: "**فامضيا لأمري وهي الاستقامة**".

وقال بعض السلف: {فَاسْتَقِيمَا} أي: اثبتا على دعوة فرعون إلى دين الحق.

قوله –تبارك وتعالى-: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} [(٩٠-٩٢) سورة يونس].

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر بصحبة موسى -عليه السلام- وهم فيما قيل: ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً فخرجوا به معهم، فاشتد حنق فرعون عليهم فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس، {فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} [(٦١) سورة الشعراء]، وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألح أصحاب موسى -عليه السلام- عليه في السؤال: كيف المخلص مما نحن فيه؟، فيقول: إني أمرت أن أسلك هاهنا {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [(٦٢) سورة الشعراء] ، فلما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق البحر {فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [(٦٣) سورة الشعراء] أي: الجبل العظيم، وصار اثني عشر طريقاً لكل سبط واحد، وأمر الله الريح فنشّفت أرضه {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [(٧٧) سورة طــه] وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك، ليرى كل قوم الآخرين؛ لئلا يظنوا أنهم هلكوا، وجاوزت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى -وهو في مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان- فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب، وهم بالرجوع وهيهات {وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} [(٣) سورة ص] نفذ القدر واستجيبت الدعوة، وجاء جبريل -عليه السلام- على فرس وديق حائل، فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها، واقتحم جبريل البحر، فاقتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً فتجلد لأمرائه وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا وهمّ أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك: {آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} فآمن حيث لا ينفعه الإيمان {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [(٨٤-٨٥) سورة غافر]، ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ} أي: أهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟، {وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} أي: في الأرض الذين أضلوا الناس، {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ} [(٤١) سورة القصص] وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله -صلى الله عليه وسلم- ولهذا روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة))[1] وقد رواه أبو عيسى الترمذي وابن جرير وقال الترمذي: حسن غريب صحيح.

وقوله: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} [(٩٢) سورة يونس] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح، وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه، ولهذا قال تعالى: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ} أي: نرفعك على نشز من الأرض، {بِبَدَنِكَ} قال مجاهد: بجسدك، وقوله: {لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء، ولهذا قرأ بعضهم: {لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}، أي: لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ((ما هذا اليوم الذي تصومونه؟)) فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه: ((أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه))[2].

---

[1] - رواه الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة يونس (٥ / ٢٨٧)، برقم: (٣١٠٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥ / ٢٦)، برقم (٢٠١٥).

[2] - رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة يونس، (٤ / ١٧٢٢)، برقم (٤٤٠٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله-: "**ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال**: {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ} ..."

وقال بعض أهل العلم: إن القائل: {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ} هو جبريل، ومنهم من يقول: ميكائيل، وبعضهم يقول: الذي قال هذا هو فرعون، وهذا بعيد جداً.

قوله: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} [(٩٢) سورة يونس]

قرأ ابن مسعود -رضي الله عنه- {نُنَحِّيك ببدنك} من التنحية، وهذه القراءة توضح المقصود بقوله ننجيك، فلا يفهم أن الله نجاه ولم يغرق، وإنما النجاة كانت للبدن فقط دون الروح.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- "{فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ} أي: **نرفعك على نشز من الأرض**"، وهذا القول قال به جماعة من السلف، باعتبار أنه مأخوذ من النجوة.

وجاء في بعض المرويات الإسرائيلية أن الإسرائيليين لم يصدقوا أن فرعون قد غرق، فأُلقي على نجوة من أجل أن يراه الإسرائيليون.

قوله: {بِبَدَنِكَ} "**قال مجاهد: بجسدك**"، جاء تفسير البدن بالجسد؛ لأن من السلف من قال: {بِبَدَنِكَ}، أي: بدرعك.

قوله: {لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} لمن خلفك أي: لهؤلاء الذين تركوا وبقوا في مصر، ولا يلزم أن فرعون بقي بعد ما رأته بنو إسرائيل لكي تراه الأجيال، ولا يوجد دليل على أن فرعون موجود إلى اليوم، ويرى كثير من أهل العلم أن الأهرام كانت قبل طوفان نوح -عليه الصلاة والسلام- بدليل أنه لا يعرف لها خبر، ولو كانت بعد الطوفان لعرف من الذي بناها، ثم من الذي جاء وأخذ فرعون ووضعه في الهرم؛ فالفراعنة هلكوا جميعا مع فرعون.

قوله: {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [(٩٣) سورة يونس]، **يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية.**

وقوله: {مُبَوَّأَ صِدْقٍ} **قيل: هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى**: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ} [(١٣٧) سورة الأعراف]، **وقال في الآية الأخرى**: {فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(٥٧-٥٩) سورة الشعراء] **وقال**: {كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [(٢٥) سورة الدخان] **الآيات.**

ولكن استمروا مع موسى -عليه السلام- طالبين إلى بلاد بيت المقدس، وهي بلاد الخليل -عليه السلام- فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة، فنكَل بنو إسرائيل عن قتالهم فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليه بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليه حيناً من الزمان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} أي: الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً.

قوله –تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ} [(٩٣) سورة يونس]، أي: أسكناهم منزلاً طيباً حسناً، وقد قال بعض أهل العلم: إن هذا المسكن هو أرض مصر والشام، باعتبار أن الله -عز وجل- أورثهم أرض مصر كما قال الله -عز وجل-: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(٥٩) سورة الشعراء] وهذا صريح في أن الله أورثهم إياها.

وقال بعض العلماء: المبوأ الصدق هي بلاد الأردن وفلسطين، وقال بعضهم: هي الشام.

وقوله: {فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ} [(٩٣) سورة يونس]، أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بيّن الله لهم وأزال عنهم اللبس، وقد ورد في الحديث: ((إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار)) قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: ((ما أنا عليه وأصحابي))[٣]، رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ. ولهذا قال الله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ} أي: يفصل بينهم، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}.

قوله: {فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ} فسر بعض أهل العلم العلم المذكور في الآية بالتوراة، ومن أهل العلم من يقول: المقصود بقوله تعالى: {مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ} يعني القرآن، أي: أن اختلافهم لم يكن عن جهل بالحق، وخفاء معالمه، وإنما كان بسبب الهوى والبغي، وهذا المعنى يشهد له قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [(١٠٥) سورة آل عمران] فالتفرق والاختلاف حصل بعدما اتضح لهم الحق وظهر، فكان اختلافهم بسبب أهوائهم وبغيهم، ولهذا قال الله -عز وجل- في موضع آخر: {فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [(١٧) سورة الجاثية].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- في اقتضاء الصراط المستقيم الأمور التي شابهت بها هذه الأمة أهل الكتاب، وذكر منها التفرق والاختلاف.

---

[3] - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب شرح السنة (٢ / ٦٠٨)، برقم (٤٥٩٧)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (٢ / ١٣٢٢) برقم (٣٩٩٢)، والترمذي، كتاب الإيمان، باب افتراق الأمة (٥ / ٢٦)، برقم (٢٦٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣ / ٤٨٠)، برقم (١٤٩٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر في تفسير قوله تعالى: {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ}[سورة يونس(٩٤-٩٧)].

قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ}[سورة الأعراف(١٥٧)] **الآية، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى:** {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس(٩٦-٩٧)] **أي: لا يؤمنون إيماناً ينفعهم بل حين لا ينفع نفساً إيمانها، ولهذا لما دعا موسى -عليه السلام- على فرعون وملئه قال:** {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس(٨٨)]، **كما قال تعالى:** {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [سورة الأنعام(١١١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ}، اختلف العلماء في الخطاب في الآية من المراد به، فمن أهل العلم من قال: إن الخطاب للكافر المكذب بما أنزل الله -تبارك وتعالى-، المكذب بالوحي والرسالة، {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ} يعني أيها الكافر المكذب {فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ} خطاب للشاكين في الوحي، لكن هذا القول وإن قال به بعض السلف إلا إنه بعيد جداً؛ لأن ظاهر الخطاب لا يدل على ذلك، والسياق لا يدل عليه، ثم أتى بعده بقوله -تبارك وتعالى-: {لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} وهذا القول قال به الإمام اللغوي ثعلب، والمبرد، ومن أهل العلم من قال: إن المراد بهذا الخطاب هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، والمقصود غيره، قالوا: هذا يرد في القرآن، فيخاطب النبي -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أنه الموحى إليه، وهو القدوة -عليه الصلاة والسلام-، فيخاطبه الله بمثل هذا وإن كان هذا الأمر لا يرد عليه، كما في قوله تعالى: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ} [سورة الإسراء(٢٣)]، مع أنه لم يكن له عند نزول الآية أحد من الأبوين قطعاً، فالخطاب موجه إليه والمراد غيره، قالوا: هذا من باب إياك أعني فاسمعي يا جارة، فالأمة تخاطَب في شخص رسولها -عليه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصلاة والسلام-، وهذا قول له وجه، ونظائره في القرآن كثير، ومن أهل العلم من قال: إن المراد بذلك هو النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكن القاعدة: أن التعليق بالشرط لا يقتضي تحقق الوقوع، مثل {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [سورة الزخرف(٨١)] والله -عز وجل- لا يكون له ولد، على خلاف في معنى قوله: {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} فمن أهل العلم من قال: فأنا أول العابدين لله، ومنهم من قال: المراد فأنا أول العابدين لهذا الولد، فالمقصود أياً كان المعنى: لكن {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} وهذا غير وارد أصلاً، فالمعلق على شرط لا يقتضي هذا التعليق تحققه ووقوعه، وقوع هذا المعلق، وله أمثلة أخرى على كل حال في القرآن، فقالوا هذا من هذا الباب، وهذا قول جيد: إن المعلق على شرط لا يقتضي هذا التعليق تحقق الوقوع، فالله -عز وجل- يخاطب نبيه -صلى الله عليه وسلم- {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ} ولم يكن -عليه الصلاة والسلام- في شك بحال من الأحوال، وإنما كان متحققاً بكمال اليقين -عليه الصلاة والسلام-، وابن القيم -رحمه الله- أطال في الكلام على هذه الآية، وكذلك كبير المفسرين ابن جرير، وأقوالهم لا تخرج عن هذا الذي ذكرته، ابن القيم -رحمه الله- يرى أن هذه الآية فيها تعليم لمن وقع عنده تردد وشك في مثل هذا كيف يستبين الحق ويخرج من هذا الشك، {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ} يعلّمهم، وهذا يشبه قول من قال: إن الخطاب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- والمراد غيره.

ثم قال تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [سورة يونس(٩٨)].

يقول تعالى فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم، كقوله تعالى: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ} [سورة يـــس(٣٠)]، {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} [سورة الذاريات(٥٢)]، {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} [سورة الزخرف(٢٣)]، **وفي الحديث الصحيح:** ((عرض علي الأنبياء فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس، والنبي يمر معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد))[١]، **ثم ذكر كثرة أتباع موسى -عليه السلام-، ثم ذكر كثرة أمته -صلوات الله وسلامه عليه- كثرة سدت الخافقيْن الشرقي والغربي، والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به.**

١- رواه البخاري برقم (٥٣٧٨)، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو، من حديث ابن عباس رضي الله عنه ولفظه قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((عرضت علي الأمم فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط والنبي ليس معه أحد...))، ومسلم برقم (٢٢٠)، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا} فلولا هذه إذا جاءت في أمر يمكن أن يستدرك فإنها تكون للتحضيض، يمكن أن يفعل، تقول: لولا صليت لولا أطعت والديك، وما أشبه هذا، ومن ذلك قوله -تبارك وتعالى-: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} [سورة النور(١٢)]، يعني ظنوا بإخوانهم خيراً، أو على القول الآخر: ظنوا بأنفسهم يعني رجعوا إلى أنفسهم أنا لا نفعله، فكذلك إخوانهم لا يفعلونه، {وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا} [سورة النور(١٦)] فهذا للتحضيض، أما إذا كان هذا يمكن أن يُفعل والأمر قد فات ولا يمكن أن يستدرك، فعندئذ تكون للتبكيت، كما في هذه الآية {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ} هؤلاء القرى أُهلكوا وانتهوا، عاقبهم الله -عز وجل- وأخذهم، فهذا للتبكيت؛ لأنه لا يمكن أن يستدرك، {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ} هذا في الأمم المهلكَة، فهو للتبكيت، -والله تعالى أعلم-، وقال: {إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ} إلى آخر الآية، قال ابن كثير -رحمه الله-: "**والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس**"، وظاهر كلامه -رحمه الله- أن الاستثناء في هذه الآية متصل، والاستثناء المتصل: هو ما كان فيه المستثنى من جنس المستثنى منه، مثل حضر الرجال إلا زيداً، والاستثناء المنقطع ما لم يكن فيه المستثنى من جنس المستثنى منه، نحو {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ} [سورة البقرة(٣٤)] باعتبار أن إبليس من الجن -على القول الراجح- فاستثني من الملائكة فهو استثناء منقطع، والاستثناء المنقطع بمعنى لكن، يعني لكن إبليس لم يسجد، وابن كثير -رحمه الله- ظاهر كلامه أن هذا الاستثناء من قبيل المتصل، ولا يويجد ما يمنع من هذا، بل قد يدل عليه ظاهر السياق، فالله -عز وجل- يقول: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ} الأمم السابقة لم يوجد فيهم أحد آمن فنفعه إيمانه سوى قوم يونس -عليه الصلاة والسلام-، إذ نزل العذاب أو أمارات العذاب أو عاينوه، أولئك لم يكونوا يؤمنون إلى آخر لحظة حتى يعاينوا العذاب، فهؤلاء لم يكونوا يؤمنون إيماناً ينفعهم إلا قوم يونس، فظاهر الكلام أن الاستثناء متصل، وكثير من أهل العلم يقولون: هذا الاستثناء منقطع، ومنهم أئمة كبار في اللغة كالكسائي والفراء يقولون: الاستثناء منقطع بمعنى لكن {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا} لكن قوم يونس لما رأوا العذاب وآمنوا نفعهم إيمانهم، رأوا أمارات العذاب، ويمكن أن يخرّج قولهم على اعتبار أن الأمم التي أهلكها الله -عز وجل- كانوا يصرون على الكفر إلى آخر لحظة إلى الوقت الذي لا ينفع معه الإيمان مثل ما حصل من فرعون، حصل منه إيمان لكنه لم ينفعه هذا الإيمان فالأمم كما قال الله -عز وجل-: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} [سورة غافر(٨٤)]، فالإيمان لا ينفع عند معاينة العذاب، فالذي حصل لقوم يونس أنهم لما رأوا أمارات العذاب، وأن العذاب سينزل، ورأوا هذه العلامات تضرعوا إلى الله وخافوا وفرقوا بين الأم وولدها، وأخرجوا دوابهم وفرقوا بين الوالدة وولدها، وجعلوا يتضرعون إلى الله -تبارك وتعالى- فرحمهم وكشف العذاب عنهم، قبل أن ينزل وقبل أن يعاينوه، فالبقية ما كانوا بهذه المثابة، أما إذا نزل العذاب وعاينوه فعندئذ لا ينفعهم الإيمان، فمن قال: الاستثناء منقطع، يقول: لكن قوم يونس لما رأوا العذاب، يعني أمارات العذاب، فقوم يونس لم يصلوا إلى الحد الذي وصلت إليه الأمم، والحالة التي لا ينفع معها الإيمان، والله تعالى أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأُخروا، كما قال تعالى: {إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}، وقال قتادة في تفسير هذه الآية: لم ينفع قريةً كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتُركت إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجُّوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم، قال قتادة: وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل، وكذا روي عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف.

{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} [سورة يونس(٩٩-١٠٠)].

يقول تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ} يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلهم، ولكن له حكمته فيما يفعله تعالى، كقوله تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [سورة هود(١١٨-١١٩)]، **وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا}** [سورة الرعد(٣١)]، **ولهذا قال تعالى: {أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ} أي: تلزمهم وتلجئهم، {حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء}** [سورة البقرة(٢٧٢)]، **{لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}** [سورة الشعراء(٣)]، **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}** [سورة القصص(٥٦)]، **{فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}** [سورة الرعد(٤٠)]، **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ}** [سورة الغاشية(٢١-٢٢)] **إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ} وهو الخبال والضلال {عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} أي: حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية من هدى وإضلال من ضل.**

الرجس قال: "**هو الخبال والضلال**"، ويقال: الكفر، وقد يطلق على نتيجته وأثره، وهو العذاب كما قال ابن جرير -رحمه الله- وهو تفسير بالأثر، كما يقال: الإثم، والإثم أحياناً يطلق على سببه، تقول مثلاً: الخمر إثم والزنا إثم والسرقة إثم، وهذه آثام، وتقول: اجتنب الآثام، ومنه قول الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلي ***كذاك الإثم تفعل بالعقول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعني الخمر، ويطلق على أثره، وهو ما يحصل من التبعة والمؤاخذة، يقال له: إثم، تقول: من فعل هذا يأثم، فمن فسره بالعذاب فقد فسره بالأثر والنتيجة، ومن فسره بالضلال أو الكفر أو نحو هذا فهو تفسير، **{وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ}** الذين لا يعقلون عن الله -تبارك وتعالى- فهؤلاء هم المعرضون.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة يونس (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ * فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ}[سورة يونس(١٠١ – ١٠٣)].

يرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه وما خلق الله في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب مما في السماوات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار، وعمران وخراب، وما في الأرض من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخَّر مذلل للسالكين، يحمل سفنهم ويجري بهم برفق بتسخير القدير لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} أي: وأي شيء تجدي أو تغني الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون؟، كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ} [سورة يونس(٩٦)] الآية، وقوله: {فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ}[سورة يونس(١٠٢)] أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم؟، {قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا} [سورة يونس(١٠٢-١٠٣)] أي: ونهلك المكذبين بالرسل، {كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ}، حقاً أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة كقوله: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}[سورة الأنعام(٥٤)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} يقول الحافظ -رحمه الله-: "**وأي شيء تجدى أو تغني الآيات السماوية والأرضية والرسل بآياتها وحججها وبراهينها؟**"، ففسر الآيات بالآيات السماوية والأرضية التي تدل على وحدانية الله -عز وجل- وقدرته، وكذلك الآيات التي جاءت على أيدي الرسل من المعجزات والبراهين الدالة على صدقهم، وصحة ما جاءوا به، وأما النُّذر ففسره بالرسل، {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ} قال: "**والرسل بآياتها وحججها**" لعل الحافظ -رحمه الله- لاحظ فيه معنىً آخر للنذر، أنه جمع نذارة فيكون النذر جمع نذير، أي الرسل، ويحتمل أن يكون النذر من النذارة يعني ما يحصل به الإنذار، وهذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يحصل بأمور كثيرة من الآيات التي فيها الوعيد، ويحصل ذلك بما يرونه ويشاهدونه، مما ينذرهم ويخوفهم بأس الله -تبارك وتعالى-، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فكل ما يصدق عليه ذلك فإن هذا لا يغني عن قوم لا يؤمنون، والمقصود بالقوم الذين لا يؤمنون: الذين طبع الله على قلوبهم وكتب عليها الكفر، فمهما جاءهم من الآيات والبراهين فإنهم لا ينتفعون به {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [سورة يوسف(١٠٥)]، وقوله: {فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ} [سورة يونس(١٠٢)] يعني ما وقع لهم من المَثُلات والعقوبات.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [سورة يونس(١٠٤ – ١٠٧)].

يقول تعالى لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ} من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إليّ فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له. {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، وقوله: {وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} الآية، أي: أخلص العبادة لله وحده، {حَنِيفًا} أي: منحرفاً عن الشرك، ولهذا قال: {وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} وهو معطوف على قوله: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، وقوله: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ} الآية، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وقوله: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} أي: لمن تاب إليه ولو من أي ذنب كان، حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه.

قوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} هذا يمكن أن يكون -والله تعالى أعلم- من باب الرد عليهم من جهة أن هذه المعبودات التي يعبدونها من دون الله -عز وجل- أحق بالشك، كأنه وجّه ذلك إليهم {إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} يعني هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله هم أولى وأحرى بالشك، هكذا فهم بعض أهل العلم أنه عرّض بآلهتهم، بمعنى أنها أحق بالشك مما هو عليه، {فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ}، وهذا كقوله -تبارك وتعالى-: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} [سورة الكافرون(١-٢)]، يعني في الحال، {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ} [سورة الكافرون(٣-٤)] في المستقبل، لن أتحول إلى عبادة معبوداتكم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [سورة يونس(١٠٨-١٠٩)].

يقول تعالى آمراً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه، {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

وقوله: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ} أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، {حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ} أي: يفتح بينك وبينهم، {وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته.

الحكم يقال له: فتح، والحاكم فتَّاح، ويقال للحكم فُتاحة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com